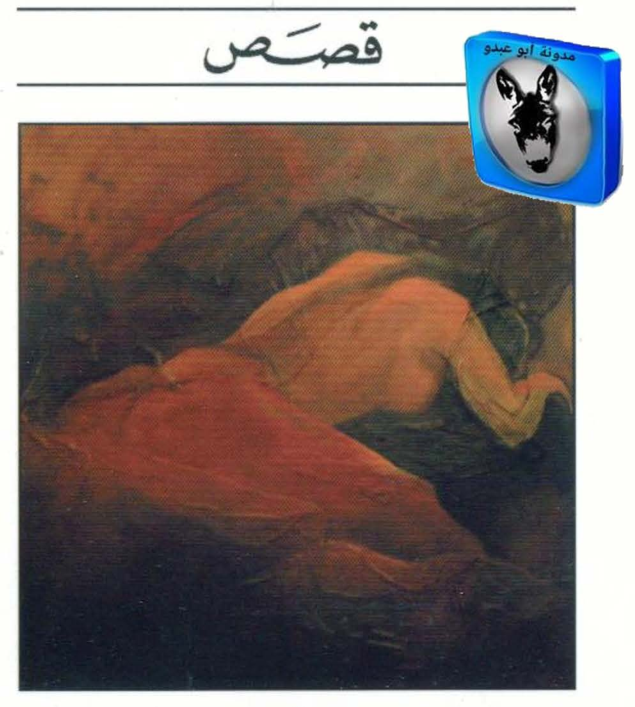
حيدر حيدر



قصص





* حيدر حيدر
* إغـواء
* جميع الحقوق محفوظة
* الطبعة الأولى 2005
* الناشــــــــــر : ورد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق ☎ 5141441
* الإشـــــراف الفنـي : د. مجد حيدر
* التـــــــــوزيع : دار ورد ☎ 5141441 ص. ب 30249

حيدر حيدر

إغـــواء

قصص

يوم بكى البحر

صباح الخير أيها البحر. صباح الخير أيتها البراري.

هجس الصياد الواثب في الفضاء وهو يطوق العالم الرحب.

وهجس في الآن نفسه: انتهت الحرب وابتدأ سلام الروح المتعبة.

فوق صخور الجزيرة البنية اللون والكامدة رأى البحر الأزرق والمزجج باخضرار الفجر. كما رأى المسافات المائية والهوائية التي اجتازها فيما مضى. وآن لمعت الأشعة على ثبج الماء تذكر المرأة التي غادرها في باريس. امرأة أفريقية تشبه الحلم، أو أنها الحلم الآن في لحظة انخطاف الذاكرة.

ـ لا ترحل. قالت الكلمة بما يشبه الضراعة وهما يتواجهان في مقهى «لافونتين». وقال: لا بد من ذلك. أحدهما كان حزيناً وممقوتاً ومنكسراً، والآخر كان يحاول الإمساك بقوس قزح في أعقاب يوم مطير سطعت شمسه. لكن الاثنين كانا يترنحان على حافة الريح.

عندما رمى الصياد شصه في الماء وغاصت الصنارة رحلت

الذكرى وأقبل شبق الصيد. الفلّينة الحمراء الطافية على السطح المائي الرجراج هي الآن مركز العالم. الانتباه والأعصاب والعينان كلها ممغنطة بهذه النقطة العائمة التي ستهتز ثم تغوص منذرة بالسمكة التي تبتلع الطعم القاتل.

فجر بحري رطب فوقه سماء بلون الماء. وعلى سطح البحر كان الصياد يبحر فوق «سفينته» المطاطية، مجذفاً بذراعيه في أعماق المياه الدافئة: سيكون الصيد وافراً هـذا اليوم. قالت ذلك طيور النورس الخافقة فوقه.

في الزمن الطفولي البعيد كان يعشق البحر ويخاف الإيغال فيه. الآن انكسر الخوف من الصخور والأقراش وكلاب البحر الوهمية. عشرون دقيقة من الشاطئ حتى «جزيرة النمل» الجاثمة كالتمساح في عرض البحر. يتعب الذراعان من التجديف بعد الدقائق العشر الأولى فيرخيهما غائصين حتى المرفقين.

دخلت السفينة الآن في عمق المياه الزرقاء ـ النيلية.

هنا يقتلون سمك البوري بالديناميت الآزوتي. الصيادون القتلة يأتون مع شروق الشمس مبحرين من خليج «بصيرة» الصغير فوق اللنش الأخضر. هـذه البقعة هـدفهم. لقد استعاضوا عن الديناميت بالآزوت المصنّع كيماوياً. القوة التفجيرية للكتلة تعادل ضعف قنبلتين يدويتين. ثلاث أو أربع قنابل تقذف في هـذه المياه الداكنة. يدوي البحر ويتمزق ويئن فيختلط الزبَد بدم السمك الطافي والمسجّى تحت السطح وفوق الرمل. آلاف من السمك الصغير تموت وتتحول طعاماً للنوارس وحيّات البحر.

دخلت السفينة المجال الحيوي للجزيرة. هي ذي الصخور

البيضاء المسطحة عبر الامتداد الشرقي للجزيرة الغائص في الماء. في اللحظة التي نزل فيها الصياد عن الفرشة المطاطية وغاص حتى السرّة ممسكاً بطرف السفينة الصغيرة، بزغت الشمس من وراء الهضاب الشرقية وزقزق نورس طافراً من أعلى قمة في الجزيرة.

- فأل حسن. قال الصياد وهو يحفّ بتجاويف الصخور المسننة والطحالب والأشنيات والقنافذ السوداء اللاصقة بالصخر.

غبطة غامرة تتدفق في العروق. رعشة جنس تكتنف القدمين العاريتين صاعدة من الصخور الندية الواخزة.

هو الآن مغمور بهذا الفرح المنعش. الفرح المشع من أضلاع هذه المرأة التي تتمطى مع الشروق.

من جهة الغرب يضرب الموج حواف الصخر بقوة وحشية ثم ينحسر هادراً فتتراءى التجاويف والمغارر والهوات العميقة جراء الحتّ. في عمق هذه الدوّارات الهادرة يحلو الصيد.

المتعة التي ترجف الأعصاب وحواف القلب، تأتي من هذا الثقل الذي يشد الشص نحو الأعماق، ومن هذه المعركة الجميلة التي تدور رحاها بين يد الصياد القابضة بقوة على القصبة، وبين السمكة التي تنازع صاعدة ثم هابطة، متأرجحة يميناً وشمالاً، رافضة بكل قوة الروح العزيزة، الخروج من الماء - الرحم إلى الفضاء المميت.

- سترحل إذن!

- حبنا بلا أمل.

في غمرات العيون، بين البريق الندي تراءى السمك الطفل يطفو ويموت.

هو كان في ذلك الزمن في حقل الرمي، وهي كانت في حقل الشهوة وضجيج الجسد. كلاهما الآن على حافة السماء يهويان في فراغ من الحزن والمرارة والقنوط المطلق.

وداعاً أيتها المرأة الجميلة، الجارحة، والتي لا تُنسى.

وداعاً أيها الأمل الضائع.

قال الجسدان ذلك في الليلة الأخيرة. ليلة الدم والبكاء والصرخة الوحشية الصامتة، والموت.

لمح الصياد اللنش الأخضر وهو ينعطف صوب الجزيرة، حاملاً مجموعة من الرجال العراة إلا من مايوهات البحر.

ما الذي أتى بهم في هذا الضحى العذب! اعتكرت بحيرة السلام الداخلي. حدث ما يشبه الصدع لوحدة الصياد مع البحر.

قصبة الصيد ارتعشت بين الأصابع وماتت المرأة الأفريقية في الطرف الآخر من العالم.

- لا شيء سوى الاضطراب. لا شيء سوى الموت.

على مسافة خمسين متراً من الجزيرة توقف محرك الزورق. كانت أصوات الصيادين وجلبتهم تملأ الفضاء.

- البوري. البوري. جهزوا القنابل. هيا. هيا! بسرعة خاطفة قذف أحدهم قنبلة آزوتية تلاها بأخرى. انفجاران مخيفان شكلا دوائر بيضاء مزبدة خرجت من أحشاء البحر.

اثنان بمنظاري بحر ولباس الغطس الأوكسجيني انقذفا عن حافة الزورق.

لم يمض وقت طويل على الغطاسين في الأعماق.

ـ ماذا هناك؟ سأل ربان اللنش الغطاسين آن انبثقا من الماء وليس في عبيهما سوى سمكات صغيرة من المنّوري والسمنيس.

ـ الديناميت لم يُصِبْ البوري.

ـ توارى من الأصوات لحظة القذف.

راحت اللعنات والعبارات البذيئة والشتائم تتطاير كالرذاذ على أم وأخت ورب قاذف القنابل.

ـ هيا اطلعو. أخت البوري على أخت الصيد.

ـ ربكم على ربّ اللي علّمكم الصيد. شو بدنا نطعمي المعلمين.

قال الربان المهتاج العبارة الأخيرة بغموض التبس على الصياد.

عندها هدر المحرك وانعطف اللنش. ابتهج الصياد بشماتة.

خمس أو ست سمكات كانت في السلة الصغيرة المدلاة على حافة الصخر. بعضها ما يزال حياً ينتفض انتفاضة النزع الأخير.

ـ إلى الجحيم سيرحلون بعيداً نحو الأعماق. قال لنفسه وهو يضع الطعم في الصنارة ويرمي الخيط الذي بدأ يغوص.

عبروا أمامه. حيزوم الزورق يشق سطح البحر بغضب ووحشية، متجهين نحو الجنوب. حين اختفوا وغربوا عن وجهه

أحس بالراحة. فجأة غارت الفلينة الحمراء عميقاً وبسرعة خاطفة. نتر القصبة برشاقة إلى الأعلى. ثقل غير عادي كان عالقاً في الشص.

تسارع النبضات مع الرعشة الداخلية لغبطة سرية صاعدة وراجفة بين راحة اليد والعينين، امتزج بهاجس خوف. أن تقطع السمكة الخيط أو تنفلت من الشص.

الصراع والتوتر بدءا من هـذا الخفقان المزدوج.

خفقة القلب الفرِح والواجف. وخفقان السمكة وهي تضرب وتتأرجح وتزوغ لتتخلص من هـذا الشِرك المؤلم والغريب الذي ابتلعته.

في برهة الصراع غير المتكافئ، حين كان الحظ أو المصادفة أو البراعة، تتموج فوق الماء مع الصعود البطيء للخيط، هجس الصياد: لا بد أنها كبيرة ومن نوع خاص.

كان الخوف أن تكون من نوع «الزلاق البنّي» الذي يمتلك أسنانا كالمنشار تقرض الخيط وتبتلع الصنارة المميتة.

على عمق متر تقريباً، وهـو في أوج التوتر والشد والخفقان دون أن يدع للقصبة ثانية من الارتخاء، لمح السمكة تطفو في المياه الزرقاء الصافية، حدث المشهد كالبرق ما لبثت بعدهـا أن خفقت وكبست بقوة غائرة بالخيط ثانية إلى الأعماق.

ما تزال عالقة لكنها الآن تدور بقوة على شكل موجات لولبية.

ـ ياللعنة! زلّاقة من النوع اللعين القارض! التماعها إذ صعدت وحركتها اللولبية، أعطته اليقين.

أنهكتها المعركة والألم، وارتفع ضغطه جراء التوتر والتوجس. هي ذي تصعد أخيراً بثقل جسدهـا وبقايا الطاقة الرافضة للموت. تصعد بوهـن لكنها تناضل بخفقات واهـنة بطيئة.

وهـو يراهـا ممددة على سطح الماء بحجم نصف ذراع، مقتربة أكثر فأكثر نحو حافة الصخر، غمره فرح طفولي وحبور انتصار.

انفجار الديناميت الذي صدم رأسه داوياً من الطرف الجنوبي، تواقَتَ مع لحظة صعود السمكة من الماء. السمكة التي شمت رائحة الموت في الفضاء الخارجي فانتفضت بقوة النزع الأخير قاطعة بمنشار أسنانها الحادة خيط الصنّارة.

ـ لا شيء سوى الاضطراب. لاشيء سوى الخذلان.

كانوا الآن يطوقون الجزيرة الصغيرة على شكل قوس من الجنوب والشرق والشمال، وهـم يوالون قذف قنابلهم عن بعد ثلاثين متراً من حواف الجزيرة.

عشر قنابل حولت البحر الذي اضطرب إلى ساحة حرب. من أعلى قمة في الجزيرة، بعد أن لملم الصياد خيوطه وأدوات صيده واضطرابه وخذلانه شاهـد زورقاً عسكرياً جاثماً قرب اللنش الأخضر. في مقدمة الزورق كان هـناك ثلة من الضباط يصرخون بالغطاسين مشيرين إلى السمك الغارق والطافي في بحيرات الدم.

ـ حتى إلى هنا وصلوا!!

في طريق العودة ماكانت هناك سماء صافية، ولا نوارس بيضاء.

تحته في الأعماق كان يسمع أصداء أنين يشبه البكاء:

هــو أم السمك أم الجزيرة أم البحر!!

نداء الدم

في فجر شبابه كان شاباً يافعاً مليئاً بالحماسة. شعوره بفساد العالم المحيط والوطن المتخلف عن ركب الحضارة والتقدم دفعه للانخراط في العمل السياسي وفرح الاندفاع لتغيير العالم والزمان الراكد.

آنذاك كان العالم يتموج بتحولات تقرع أجراس السعادة الإنسانية والمستقبل المشرق للبشرية.

هجس في جلسة سرية: الحاضر مظلم والبشر هنا في ضنكٍ وجوع واستبداد. قالت حماسته الوطنية.

عليك أن تَهِبَ حياتك للمستقبل المضيء من أجل الآخرين. هجس. وككل المثقفين التقدميين هنا وفي بلدان العالم راح صالح العبد الله يخوض معارك ضارية، وجدالات ممضة حول المسائل الحساسة: التنوير، الحرية، الاستبداد، الاشتراكية، ومستقبل الشعوب المضطهدة. في الأسرة بدا الأمر نشازاً. والده الشيخ وإمام البلدة هدده بالتبرئة والطرد من العائلة.

- في آخر الزمن يولد من السلالة الشريفة هذا الملحد الملعون.

وإذا واجه الأب الغاضب بلغة الجيل الجديد وأفكاره المغايرة صرخ في وجهه: أنت وشيوعيتك الملحدة إلى جهنم. لست من دمي. غادر هـذا البيت والتحق بكلابك الضالة.

كان في السنة الأخيرة من تخرجه الجامعي. وحين شرح الحالة لرفاقه في الحزب تضامنوا معه. وآزروه مادياً، وبعد احتيازه للشهادة أمّنوا له بعثة تخصص إلى موسكو.

بعد عودته من وطن التقدم والاشتراكية، بدا اندفاعه وطاقاته في الأوج. وككادر مميز كان مؤهلاً لمراتبية تليق بقائد في سلّم المسؤولية.

بدت أحلامه وتصوراته ملونة ومديدة.

بناء الإنسان الجديد والوطن المضيء المحرر من الخرافة والجهل والدين تحت مصابيح العقل والعلم والديمقراطية.

كانت أطروحاته النظرية تدوّم في فضاءات جميلة وسريالية، أفقها المستقبلي وأمثولتها قمر الاشتراكية الساطع من هناك. أن نغير بلادنا كما فعل الرفاق في البلدان الاشتراكية هذا هـو الإنجاز الحضاري والتاريخي.

- والميراث التاريخي المتأصل؟ كان الناس يسألونه.

- علينا أن نتطهر من ذلك الميراث القديم لنولد من جديد.

- لكنه يستوطن الدم منذ آلاف الأعـوام!

- الوعي التاريخي يجدد الخلايا بدم جديد.

بعد عـام من غـروب شمس الاشتراكية من سماء موسكو، حدث اضطراب هائل يشبه الزلزال في أعماق الكون والبشر.

الرجل المسمى صالح العبد الله وقع فريسة تطير واكتئاب وحيرة أودت به فيما بعد إلى المصحّ.

لزوجته سيروي في أعقاب خروجه من المشفى سلسلة أحلام وكوابيس غريبة عن رجال غـامضين معممين ومجللين بالأبيض والأخضر.

رجال مهيبون كانوا يرفعونه على محفّات وردية ويصعدون به إلى السمـاء. ومن تلك السمـاوات السامقة يتركونه ليسقط داخل هـوات سحيقة موقدة بالنيران.

وحين يدخل بوابات النوم كان يقع فريسة نوبات رعب، وأشباح غامضة، وهـذيانات.

في أعماق الليل كانت امرأته تسمع شظايا من هـلوساته، محورهـا الموت وخلايا الدم والجراثيم السماوية وجحيم الغروب الأحمر.

في صباح يوم خريفي، كثيف الضباب، استيقظ مبللاً بالعرق والفزع.

قال لزوجته وهـو يرتجف: الحالة ما عادت تحتمل. لا بد من النذر أو زيارة أحد أولياء الله والنوم في رحابه.

- النذر. الزيارة! سألت المرأة مهلوعـة.

- أجل. نذر باسم سيدنا الخضر أبو العباس.

زوجة صالح العبد الله بهتت. إلى حلقها صعدت صرخة وماتت هناك.

قال صالح العبد الله بهدوء غريب: قبل ذلك انزعي عن

الجدار صورة هـذا الرفيق القديم البائس. ليرحمه الله وليرحم زمانه الذي مضى وضعي مكانها آية من سورة الرحمن.

هكذا بين مدّ البحر وجزره، بدأ تجديد الخلايا بالعودة إلى التطهر بالدم القديم.

داهم الأب فرح غامر بعودة الابن الضال إلى الطريق القويم.

وفي قبورها استراحت عظام الأسلاف إلى أبد الآبدين.

التطهُّر

منذ زمن لا أذكر بدايته وأطياف هــذا الرجل تطاردني في الأحلام. الرجل الكريه المُصاغة دماؤه من الحقد وجنون العظمة.

ما كنا صديقين يوماً في عالم اليقظة، كما لم نلتقِ في الواقع. اثنان متنافران. وعدوان. ولدنا خطأ في زمن غير متكافئ.

هــو رمته المصادفة الغبية في رحاب الضوء، وأنا لأمر ما غير مُكْتَنه قُذفت إلى ظلال العتم. هــو كان في ابتهاج الصخب، وأنا هناك في الزوايا المنسية لاستقالة البحر.

ومع ذلك هــوذا ينغص أحلامي. يأتيني في الليالي الغامضة، رشيقاً كلص محترف، ويصحبني معه في رحلات غريبة إلى أماكن لا عهد لي بها.

اجتماعات سرية لمحافل تفوح منها رائحة البخور والتراتيل الدينية. مهرجانات أعراس داخل أحياء قديمة، هــو المُحتفى به في فضاءاتها وأنا ضيفه أو مستشاره الحميم. أرافقه في مهمات خاصة إلى بلدان لم أرهــا في حياتي.

عبر هـذه الاحتفالات والأسفار كنت أبدو إلى جواره كما ظله، يسألني ويستشيرني أين أخطأ وأين أصاب.

ومع أنني كنت أشتهي موته والخلاص منه في عالم اليقظة، إلا أن تلك الأحلام العجيبة كانت تشير إلى النقيض.

حواراتي معه في تلك الأسفار الضبابية كانت موجزة. ولعلني لا أتذكر منها سوى النزر. الجوهـر فيها حول فساد الزمن والإنسان. المستبطن وما ينبغي الجهر به وهـو على وشك البوح، يصعد إلى الحلق أو أهجس به خوفاً، لكنه يظل موارى في الأعماق.

ما أتذكره أنه كان رجلاً عملاق الجثة يرتدي أبداً ثياباً سوداء أو رمادية وعلى شفتيه مشروع ابتسامة ماكرة.

رجل واثق من نفسه، لكنه دائب الحركة والحذر والترقب، عيناه عينا قط برّي جاهز للوثوب والفتك.

ومع أن الأماكن التي يصحبني إليها مغلقة وآمنة ومحمية، إلا أنه كان يبدو لي قلقاً ومتوجساً من أمور مبهمة كانت تستغلق على إدراكي.

هـو ومرافقوه، وأنا معهم، ما كنا نطيل المكوث في تلك الأمكنة. بحركات سريالية سريعة كنا ننتقل لكأن شيئاً مباغتاً على وشك الحدوث.

في صباحات اليقظة أقع فريسة الأسئلة المحيرة:

ما حقيقة هذا الرجل؟ ولماذا يقتحم أحلامي وأنا عدوه اللدود؟

من المنقسم فينا هـو أم أنا؟ كيف نتلاقى بهذه الحميمية وكل منا مضمر العداء للآخر حتى الموت؟

ما كنت أقع تحت وطأة الأسئلة التي يستعصي الجواب عليها، بقدْر ما كان يؤرقني تأنيب مرير في داخلي. جدال غير مُكتنه يتحدى إدراكي.

ـ لا بد أن عداوتك معه ملفقة وهامشية.

ـ لكن هـذا الوحش دمر أحلامي ومستقبلنا.

ـ في أعماقك حنينٌ إليه.

ـ بيننا أنهار من الدم والجوع والحقد.

ـ بين الجلاد والضحية توق إلى التوبة والغفران.

ـ من ربع قرن وأنا أحلم بموته وخلاصنا منه.

ـ لا شعورك مراوغٌ ومكّار.

كنتُ في المصيدة.

ترميمات دفاعـات اليقظة بدت هـشة ومصدعة.

تتالي الأحلام غير العدوانية بيني وبين الرجل القوي، والعدو في آن، بلبلتني.

مع الزمن أورثتني هـذه الأحلام الغريبة شعوراً حقيقياً بالنقص. أوحت لي بأن تناقضنا وكراهـيتنا ربما ليستا بالعمق الذي أتخيله وأحياه.

بدا الأمر مفزعاً. هذا الشرخ الثنائي في داخلي هي ذي أحلامي تفضحه.

- أتراني أهجس بالصلح معه؟ هل هناك تواطؤ سري بيننا يُبرِم عقده اللاشعور الجمعي وأنا ضحيته؟

في آخر حلم تذكرت بأن شيئاً قيل بيننا أو أُوحي لي به هجساً، فحواه سؤال غريب: لماذا فعلت بنا ذلك؟ نحن لسنا قروداً لنوضع في هذه الأقفاص.

كما أتذكر أنني تحدثت معه حول الدروب الضالة وفساد الضمائر والتكاثر الجرثومي المحيط بخلاياه وحاشيته.

كنت أرتعد خوفاً وأتلجلج، بينما كان يجلجل عالياً بالضحك.

- أيها الغرّ يا صاحبي المسكين! قالها وهو يربّت على كتفي.

كنا في قاعة ملونة بأزهار صفراء وزعفرانية. في يدي حقيبة طبية وأنا أخطو بطيئاً خلفه وهو يتقدم في عمق القاعة نحو حشد ممحو الملامح. بدا لي مريضاً وهو يسير متعثراً تحت أضواء النيون واللافتات البيضاء.

بغتة فاجأه إنهاك. ما عاد بإمكانه التقدم نحو المنصة حيث الحشد وباقات الورد.

الآن كنت بعيداً عنه وهو يترنح. صوت أو صرخة استغاثة بدرت منه وهو يلتفت نحوي. تحت الأضواء هوى. وحيداً هناك في الظلال كنت جامداً، صامتاً كحجر.

البومة الذهبية

- في المرة القادمة علينا إشعال النار.

- بعد حوالى الحادية عشرة يُشرق القمر.

كنا أربعة من الصيادين نفترش الأرض العراء، تحت فضاء نجومه شاحبة.

كالغجر مددنا الحصر والبطانيات وبعض الخرق العتيقة والجرائد فوق منبسط من الحصيد اليابس واللّين.

بدأنا بنثر عشاء بائس من البطاطا والبيض المسلوق والسردين والبصل والزيتون والخضار، فوق الجرائد.

كانت هناك نصف زجاجة عرق ميماس. أحد الصيادين أخرج بطحة عرق فلش، حين فتحها وشرب جرعة منها فجّت رائحة نفاذة ذات منشأ بترولي.

كنا سنسهر حتى الفجر على صوت مسجلة تحتوي شريطاً خادعاً يقلد صوت طيور الفري.

خارج مسار ضوء المصباح اليدوي كانت حركة أي منا تشبه دبيب الأشباح أو الظلال المضللة.

ما بعد مسافة أمتار تبدو الأشياء سديمية في العتمة ومتساوية، ومن بعيد تلوح بعض أضواء القرى ونيران صيادين ومصابيح رعاة الماشية من البدو الذين خيموا في السهول المجاورة.

تحت هذا الفضاء الأصم والغامض كانت ملايين الإيحاءات والهواجس والأسرار ترسلها البراري الموحشة واللانهائية.

هنا انقطعت أسباب الحضارة سوى من سيارة البيك آب الهاجعة إلى جوارنا.

منذ التاسعة ليلاً ونحن هنا. بيننا وبين أقرب بلدة أقلّ من عشرين ميلاً، كما لا نبعد عن الحدود اللبنانية أكثر من ثلاثة أميال.

- لنشعل المصباح الداخلي للسيارة. ما رأيك أبا المنذر.

- حسناً.

الآن نرى عبر دائرة قطرها حوالى عشرة أمتار.

من مسافة مئة متر تقريباً يأتينا صوت المسجلة التي يقلد شريطها الخادع أصواتَ الطيور.

موّهت المسجلة تحت القش في حقل من حقول البامياء والأعشاب الخضراء.

يقيناً نحن نهيئ وليمة للغدر في هذا المساء الرخي.

نشيّد مسرحاً للقتل بأعصاب باردة، ونشوة داخلية ونحن نشرب الخمر، ونروي حكايا ماضية عن الصيد. حكايات مثيرة، مبهّرة بالكذب والمغالاة والتباهي.

ـ أتذكر يوم كنا معاً في صيد الدرغل في الجزيرة؟

ـ طبعاً. خلال ثلاثة أيام قتلنا أكثر من أربعمائة وسبعين طيراً.

ـ لو كنت معنا في صيد ديوك الفرانكولين. الصياد الحقيقي يُختبر بهذا الطائر القوي والجميل.

ـ وماذا عن صيد السمّان في سلقين؟ سأل أحد الصيادين.

ـ بدك الحقيقة أخي. أنا ما حبّيت هـذا النوع من الصيد الغادر.

ـ ليش. شو السبب؟

ـ لأنه صيد سهل وحقير وتنبل. تضع المسجلة تحت شجرة عارية. يسمع السَمّان الصوت الخادع المقلّد فيندفع كالسهم من أعالي السماء ويقف على غصن لا يبعد عن مرماك أكثر من عشرة أمتار. طائر جميل بلون العسل والرمل يتلفت يميناً وشمالاً رافعاً رأسه ومزهـواً باحثاً عن مصدر الصوت. طاق. فجأة يهوي قرب الكمين. طائر حجمه بحجم نهد طفلة أو إجّاصة. أي غدر هـذا!

ـ بيناتنا صيد الفرّي أحلى أنواع الصيد. علّق أحد الأربعة.

ـ في الحقيقة صيد الحجل هـو صيد التحدّي. هـذا الذي ينهكك وأنت تطارده في الجبال الوعرة والسفوح الصخرية. وفجأة يهدر السرب. يا رجل هـديره إذ يفاجئك يخلع قلبك من صدرك جراء قوته.

ـ خليك من هـا الحكي. أنواع الصيد كلها حلوة ومثيرة.

المهم أن تتفرج على الطريدة وهي تتأرجح في الفضاء ثم تنتفض فوق الأرض ممرغة بالدم.

ـ لذة النصر ونشوة القتل هـاه! ردّ أحد الصيادين.

ـ طبعاً. ولا لذّة الجنس يا رجل.

ولا تنتهي حكايات الصيد.

إنها لا تروى لتبديد الزمن والليل وحسب. ثمة نشوة داخلية تروي أعماق الصيادين بينابيع الذكرى والانبهار، والشعور اللاواعي والبدائي بالوحشية والقتل. كأنما هناك عودة كامنة في الأعماق إلى إنسان الغابة قبل ملايين السنين، حين كان الصيد والقتل ضرورياً للعيش وللدفاع عن حياة الإنسان المهددة.

في السنوات الأخيرة، جرّاء تأملات في امتهان حرفة الصيد، وملاحظات الآخرين، بدأت أراجع نفسي حول هـذه الهواية التي مارستها في سن مبكرة. هـل أستمر أم أتوقف؟

منذ الطفولة ورثت هـذه الهواية من الأب ـ الصياد الذي علمني إطلاق النار وصيد الطيور.

في البداية لاحت المسألة كأنها لعبة لذيذة مسلية، أو رياضة في أرجاء الطبيعة. لكنها مع الزمن تحولت إلى إدمان أو ما يشبه الغريزة.

لا بدّ أنها غريزة القتل التعويضي. أدركت الأمر بعد إمعان.

فعبر التأمل والمراقبة الذاتية، والتوغل في أسباب ودوافع الحالة، شبه المستعصية على الحل قادني التحليل نحو مجاهـل ومجرات غريبة حول التعويض والاستبدال والقتل المجازي للطيور والحيوانات البّرية.

- هل في أعماق كلّ منا قاتل مستتر في ظلمات اللاوعي؟

- أيكون قتلنا للطيور والحيوانات استعاضة عن قتل الآخر. نوع من العودة إلى الزمن الوحشي؟

تساءلت بفزع وحيرة.

وفي صراع مضاد لهذه التأملات بدا الأمر في وجهه الآخر المتواطئ هزلياً. كما بدا كأنه غطاء شفاف وذريعة لإدمان يستعصي على الشفاء.

داهمتني هذه التأملات وأنا أستمع لحكايا الصيادين الليلية وهذياناتهم.

كان الفضاء ساحراً وطفولياً في تلك الليلة. الهدوء الجاثم حولنا تثقبه الأصوات الغريبة لطيور الليل المهاجرة، وعواء الثعالب، وعبور الحشرات، وأصداء الزيزان.

داخل هذا العراء الموحش بدت الطبيعة الآسرة كأنما هي إلهة الكون. داخل هذا الامتداد على الأرض العارية بدونا كديدان ضئيلة أو شبه أميبات مقذوفة في عمق هذه الظلمة الكونية.

بغتة، ونحن تحت ظلال السِّيَر والحكايات وتيارات الذاكرة، سمعنا خبب خيول قادمة من الغرب.

عبر ضباب الظلام لاحت أشباح خيالة تخبّ باتجاهنا، جاءتنا أصواتهم كأصداء مبهمة.

توجسنا من المفاجأة.

- لابد أنه فصيل جنود يقوم بمسيرة ليلية. هجست.

إذ اقتربوا ارتعش الهلع أكثر.

- حتى إلى هـذه العراءات النائية يتبعنا الجنود!

باستياء همست نفسي.

مناخ وفضاء الهدوء والصمت والعذوبة السرية، اعتكر.

- أطفئوا الضوء!

صرخ صوت إثر إضاءة المصباح اليدوي باتجاه الخيّالة.

كانوا الآن على مرمى البصر. رتل شبحي فوق خيول وبغال شبه عارية يعبرون قربنا واحداً تلو الآخر.

- مين الشباب؟ ألقى السؤال قائد المسيرة الليلية.

- صيادون. قال أحدنا.

كنا في برهـة حرجة، داهمها خطر متوقع.

ما بدا غريباً، وهـم يعبرون تحت ضوء الأفق على مسافة أمتار من موقعنا، أنهم كانوا عزلاً من السلاح، لا يعتمرون عمرات ولا يرتدون ثياباً عسكرية، كما بدت خيولهم غير مسرجة.

- موفّقون في مهمتكم يا شباب. قال أحدنا بعد أن نأوا عنا.

عبرتْ خلايا وعيي ثوانٍ من البلبلة والبهوت: من يكونون؟

قبل استيعاب المشهد السريالي والخروج من متاهـة الذهـول والإرباك سألت إن كانوا مقاتلين أو فدائيين يعبرون الحدود في مهمة، لكن الجواب جاء غريباً وساخراً: إنهم مهرّبون!

قال أحد الصيادين ثم أردف: كانوا خائفين منا أكثر من خوفنا منهم. توجسوا كميناً للجمارك.

بعد سكون بحيرة الخوف، شرح أحد الصيادين الأحوال الخطيرة للمهربين وهم يعبرون النهر عبر المخاضات. الصدامات مع رجال الجمارك. معارك بالرصاص حتى الموت. منذ شهر شيّعوا في قرية بني نعيم ثلاثة مهربين قتلوا وهم يعبرون النهر.

- الرشوة سيدة الأحكام. لماذا الرصاص والقتل؟

- يختلف الأمر بين كبار المهربين وصغارهم. الكبار يرشون أما الصغار فالعترة عليهم.

وروى لنا أموراً عن أساليب التهريب الماكرة. العبور من معابر أخرى غير مراقبة. عودة البغال محملة بالمهربات وحيدة، بينما يعود الرجال من مفازات أخرى راجلين.

- في عالم مستباح قانونه الرشوة والفساد واللصوصية الحكومية وفساد الضمير، يلجأ هؤلاء البؤساء للتهريب لإطعام عائلاتهم - قال أحدنا.

- الكبار والمسؤولون ينهبون البلد ويهربونه في عز الظهيرة، بينما هؤلاء التعساء يهّربون بعض الدخان أو الويسكي ليلاً تحت احتمالات الرصاص والموت.

كنا نروي بأسى وسخرية أحوال البلد التعيس.

لا أدري كيف تذكرت أننا في موسم منع الصيد لمدة خمس سنوات حسب القانون، وبعضنا لا يمتلك حتى رخصة حمل بندقية.

عبرتني فكرة وامضة، جاءت على شكل سؤال: ترى ماالفرق بيننا نحن الصيادين وبين أولئك المهربين؟

كان من الصعب الوصول إلى اقتناع جهري في التماثل خارج المواطأة المستترة.

طلقة مباغتة دوّت في عراء الليل، أخرجتنا من فضاء الأسئلة والجدل اللامجدي.

ـ شو القصة أبو محمد؟ سأل أحدنا.

ـ بومة حقيرة مّرت فوق حقل المسجلة.

ـ إي. وليش أطلقت عليها.

ـ بتهاجم الفرّيات وتفرقها.

تناول أبو محمد المصباح اليدوي واتجه نحو الحقل.

حين عاد كانت بومة ذهبية الجناحين مرصعة ببياض ثلجي في بطنها تتدلى من يده وهي تنتفض. بدت مصابة بجناحيها.

ـ والآن ماذا ستفعل بها؟ سألته.

ـ نبللها بالعرق ونحرقها. قال مبتسماً بشماتة.

في تلك البرهة أحسست بالكراهية والمقت للصيد والصيادين، كما داهمتني حالة قريبة من الغثيان.

في أصياف عبرت، تحت قمر يضيء السهول والبحر، كنت أنتظر على سطح البيت وبلهفة طفولية قدوم البومة الذهبية.

كانت تأتي في أواسط شهر آب من كل عام. تقف أعلى

شجرة السرو وتراقب فئران الحقل الليلية. وفجأة تنقض كالصقر وبين مخالبها فأر أو خلد حقل أو خفاش صغير.

بفرح كنت أتهلل لقدومها، شبيه طفل يتلقى هـدية تهبط عليه من سماء بابا نويل، وهي تخفق بجناحيها فوق حديقة البرتقال والليمون والسرو.

ما كان أجملها وهي تقف على أعلى غصن كعروس بهيةٍ تراقب الفضاء والأرض بحثاً عن طريدة.

كنت أراقبها وأتملى بهاءهــا الأبيض والذهـبي من مسافة قريبة، مسحوراً بجمال رأسها الدائري الشبيه بالتاج، ثم هــذا الانتصاب الواثق، وهي تدير عينيها الثاقبتين كمروحة عسلية براقة.

هــاتان العينان اللتان يصل مدى بصرهما الحاد إلى مدى مئات الأمتار، ليلاً.

ما كانت تطيل الإقامة. يومان أو ثلاثة ثم تهاجر.

مع رحيلها تنهمر على روحي كآبة الفقدان. إحساس بفقد صديق عزيز زارني من أقاصي العالم ألقى السلام عليَّ خطفاً ثم غاب.

ـ لو تأخذيني معك أيتها البومة الذهـبية. كان الطفل الحزين يطلق أشواقه وهـو على حافة البكاء.

الآن هي هنا جريحة. محطمٌ بهاؤهــا، تنزف دماءهــا فوق التراب والعشب اليابس. وعلى ضوء المصباح الأصفر ألمح في عمق عينيها الكابيتين استجداءً وذبولاً يشيان برائحة احتضار.

حتى المخالب الحادّة انكمشت وتراجعت تحت وطأة الألم وعمق الإصابة.

كان هناك عطبٌ عصيّ على الرأب كَسَرَ الجناحين القويين للطائر الحزين.

شيء ما أبعد من الأسى والمرارة كان يسري في الجو وعلى حواف روحي. لماذا اغتيل هـذا الطائر الطليق في لحظة غفلة وعلى هـذا النحو المجاني دونما ذنب؟!

كان الصيادون ينسجون حكايات فلكية وخرافية عن طائر البوم، طائر الشؤم والنحس الذي يحيا في الخرائب والمقابر والأماكن المهجورة، حتى أن العرب القدماء كانوا يتطيرون لمرآه متوجسين نذر الشر والكوارث منه ومن صوته فنسجوا من خيالهم الخصب والخرافي والمتصل بالنجوم والأفلاك والهذيان الليلي، علاقة سحرية بين البوم والجن، وبأن روح الجن مُسخت في البوم، والأصوات التي يطلقها في الليل ما هي إلا أصداء لصرخات الجان المنتشرة في الخلاء والعراء، منذرة بالخراب والكوارث.

أستمع إلى هـذه الترّهـات والأساطير وأنا مُقصى.

أستعيد علاقتي الفرِحة الطفولية بمشهدهـا وهي تطير مزهـوةً فوق الحقول البحرية.

الآن للفرح طعم الرماد والغبار الملوث بدمها.

شيء واحد سأفعله لصديقتي الجريحة التي تُحتضر: أن أنقذهـا من الحرق حيةً.

سأحملها بعيداً وأواريها في حفرة وأودّعها بغصّةٍ، ذارفاً

دمعةً حارقةً كانت تحتبس في مقلتي يوم كانت تودعني وهي ترحل مهاجرةً نحو ديارها القصية.

- الآن سوف لن أعود إليك بعد هذه الليلة أبداً!

ستقول لي وهي تنام في حفرتها الصغيرة.

في الصباح سينفجر الفضاء بالطلقات حين تبدأ مجزرة الطيور المذعورة، ويبدأ الصيادون حفلتهم الدموية القاتلة، حفلة الاغتيال.

تحت هذا الفضاء الانفجاري ستُنسى أكاذيب السهرة ومباغتة المهربين، وحكاية البومة الذهبية.

ترحل الحكايات نحو مناطق مجهولة كأنها حلم أو كابوس حدث في ليلة من ليالي الخريف.

حكايات النساء

1

إغــواء

الأنثى التي اقتحمت فجر الرجل الوحيد في هـذا الشتاء البارد لاح وجهها الباسم بلون الزهـر المريمي، المنبثق من فجوات حجارة التلال وأعشابها.

كما عاصفة هـوجاء صخبت، مالئة فضاء البيت باهتزازات سريالية خلخلت ذرات الهواء. الرجل المباغت، والمستكِنّ قرب أبواب البحر اضطربت عزلته فتشرد الهدوء.

بدت طفلة على تخوم المراهـقة، رشيقة، مزهـوة بوسامة جسد يمامة على أهـبة الطيران.

هـو كان رجلاً على عتبة الخمسين، قريباً من حافة الهاوية.

ما كان هـناك وقت للمحاكمة ولا للأسئلة: كيف؟ ولماذا؟ ومن أين؟

هي لم تفسح وقتاً. بعد أن رمت معطفها ومحفظتها.

بفوضى وجودية قالت: أنا فتاة مجنونة وضائعة. وإذ دارت بجسدها وعينيها العصفوريتين في صالة البيت ورفوف

الكتب همست مبهورة: منذ زمن أشتاق الوصول إليك. لا بد أن أحلامي هـدتني أخيراً.

وكما جنية ساحرة تحركت بجسدها المفعم بالطاقة، وهي تستكشف ردهات البيت وأسراره: لكأنني أعرف هـذا البيت قبل أن أراه. حلمت به. ولكن لماذا ليس في البحر كما رأيته في الحلم؟

كانت ترشق الكلمات كسهام أو طلقات خطّاطة دون أن تنتظر أجوبة على أسئلتها.

بإيقاع طفولي مصطخب بأمواج من العبث واللامبالاة دخلت المطبخ، صائحة وهي ترفع ذراعيها كما لو أنها ستطير: سأعد القهوة ما رأيك؟

ما تركت فسحة للجواب: ساده أم وسط أم سكر زيادة؟

باشرت تحضير القهوة: أعرف أين هي الأشياء لا تدلني.

الرجل المندهـش، المنغمر في صمته، والمغتبط بهذا الحضور العذب، المباغت، وإيقاع الحركات الصبيانية، والكلمات الطائرة، ما قال شيئاً.

استدار بنوع من اللامبالاة الماكرة نحو إيقاعات الصباح اليومية: فتحُ النوافذ للضـوء والهواء. تنظيفُ أقفاص طيور الكنار وعصافير الجنة. ترتيب فراش غرفة النوم. تسخين ماء للحلاقة وسائر النثريات التافهة.

ـ لماذا لم تسألني من أكون ولماذا أتيت؟ قالت وهي تثب حوله بحركات أرنب مفعم بالحبور في أرض معشبة.

ـ ما تركتِ مجالاً للأسئلة.

ـ طيب اسألني الآن.

ضحك الرجل وهـو يباشر إرغاء الصابون على وجهه وذقنه:

ـ هيا. أجيبي أنت. أنا الشاشة وأنت الراوية.

حملت فنجان القهوة ووضعته على الرف الزجاجي أسفل المرآة.

ـ اشرب القهوة بينما أتملاك وأنت تحلق. فجأة أطلقت سؤالاً غريباً ونائياً: قل لي. أنت تعرف أكثر مني. ما علاقة الجنون بالحرية؟

ـ أولاد عم ومن حارة واحدة. قال بين الجد والهزل.

وهي تشرب القهوة بمحاذاته وتدخن رمت سؤالاً أكثر غرابةً: أنت هـل تؤمن بتناسخ الأرواح؟

ـ حالة محيرة وسحرية ومثار جدال بين العلم والأديان القديمة. مسألة غير محسومة. ولكن لماذا هـذا السؤال؟

ـ قل عني مجنونة ولست من هـذا العالم. أنا كنت ابنتك في الجيل الماضي. هـذا ما أراه دائماً في أحلامي بعد موتك. عفواً بعد موت والدي.

شيء ما اضطرب في داخله. توقف لثوانٍ عن الحلاقة. التفت نحوهـا.

كان وجهها حزيناً وعيناهـا بلون الدمع. قال تحت غمار الدهـشة: دعينا نغّير هـذا المسار الغامض.

ـ عيناك نفاذتان. هـذا البريق اللامع لكم أحببته ومازلت. واستطردت بجدية ماكرة: هـل تصدق. أرغب لو كنت رجلاً!

في فضاء السخرية سألها: أتبادلين؟

وهي قربه في المرآة بدت مندهشة. عيناها تلمعان ببريق غزال أليف ومفزوع: لكن أنت. قل الحقيقة ألا تباهي بذكوريتك؟

- الأنثى أجمل وأكثر بهاءً.

- هي الأرض الخصبة التي تعطي. إنما الموطوءة أبداً - قالت الجملة بنفور.

- لكنها أصل الخلق.

- غير أن الرجال لا يختلفون عن وحوش الغابة! نبرت بحذق.

تحت غمرة الحوار البرقي شبه اللامعقول. وهي تقول العبارة الأخيرة حزت شفرة الحلاقة حافة الشفة. نفرت نقطة دم. كما في ومضة برق انحنت على الشفة وامتصت كرية الدم: هانحن نتراحم مرة أخرى!

رعشة أو ذهول. ارتعاد خارج الزمن، كما لو أن الروح خرجت من نطاق جاذبية الجسد.

تراجعت خجلة، وجفةً من الحركة الغريبة، الجريئة، والمحرّمة في آن.

- سامحني هل ارتكبت إثماً؟

- لا. أبداً. قال وهو تحت سحابة الذهول.

فجأة أشعلت سيجارة: ومع ذلك أنا أحب الرجال.

سألت طفولتها الضاحكة: كم امرأة عبرت حياتَك؟

هذا الرشق من الأسئلة. هذا الإيقاع الغامض. وهذه

الجرأة من أنثى تقتحم بيته لأول مرة. كان الآن يغوص في الأعماق الدوارة لبحر ملون، ومعتم، كهوفه بدائية، وهو الخائف والمضطرب يرتجف من البرد.

- ولم هـذا السؤال؟

- الرجال عادة يتباهـون بعدد النساء اللواتي عبرن تحت الغطاء.

بدا الآن طفل الأسئلة الملقاة. لا يكاد يلملم ذراته التي تناثرت حتى يُرشق بسؤال جديد.

هيئته التي تبدلت إلى عبوس جراء عبارتها الأخيرة، بانت في غضون الجبهة. ندبة جرح الشفرة نزفت قليلاً من ضغط الشفتين امتعاضاً.

قالت الفتاة وهي تستوعـب الفجاجة والابتذال وهـما يشوهـان اللوحة السريالية: آسفة. لا بد أنني فتاة ثرثارة وحمقاء على ما يبدو.

حتى لحظة الجلوس معاً في الصالة، بعد الحلاقة وارتشاف القهوة، كان السؤال يتأرجح على حافة الحنجرة: مالذي تريده منك هـذه الفتاة الغريبة؟

بدت الأسئلة والرشق المتواصل للكلمات والعبارات أبعد من مدلولاتها الظاهـرية.

بهدوء في أعقاب الخروج من لجج البحر وكهوفه، والاهـتزازات الغامضة التي شرّدت ذراته لوهـلة، راح يتأملها وهـما متواجهان تحت ضوء الشمس التي انسهم شعاعها على وجهها وفوق البساط البرتقالي.

هناك في العمق المستتر، تحت الوجه المضيء، وما وراء العينين العسليتين، تألق حزن وأسى بلون الغسق.

كان الآن يراهـا في فسحة السكينة وهـو يدخن.

ولأن الصمت والسكينة، عدواهـا اللدودان، وثبت كسنجاب عن الديوان نحو المسجلة ووضعت شريطاً لفيروز:

«يبكي ويضحك لا حزناً ولا فرحا».

وهي تدور عائدة إلى مكانها، هـبطت قربه: أنا لم أقبّلك بعد الحلاقة. نعيماً. يا إله البحر لكم رائحتك تذكرني به. قل لي هـل تحب فيروز؟

في الخلايا عبق الاضطراب والزوغان. تخلخل الهواء والجسد عبر شرود الأشعة والضـوء المكهرب. انصعاق دموي، مموج، بعثر الأفكار والقدرة على التركيز. لثوانٍ كان هـو تحت تأثير الصدمة التي كتمت الصرخة.

ـ بيتك جميل وساحر. حلمت به ذات ليلة: بيت ممحي ورا حدود العتم والريح. أنا مسحورة بإلهين: فيروز والبحر. ألديك صديقة؟

ـ بلى. قالها الرجل كما سهم يرميه صياد ليقتل الأمل.

ـ أتوافيك دائماً؟

ـ كما الطيور في مواسم الهجرات. هي شبه مأسورة.

سؤاله: وأنتِ؟ لم يُلقَ.

لكنها قرأته وهـو يرتسم صاعداً من الحنجرة إلى حواف الشفتين.

تحت ظلال الحزن الشفيف، وجرح طائر الأمل المصاب بالسهم الوحشي، فاضت وهي تحنو بذراعها حوله:

ـ أنا فتاة تعيسة ومضطهدة في بيت بلا أب يسيطر عليه الأخوة الذكور بين أربع بنات وخمسة صبيان. تصور هذا الجحر الأرنبي! الأكبر بين الذكور هو الرب ونحن العبيد الذين نسبّح بحمده.

بمرارة وغصة روت عن موت الأب الجميل والعطوف. الأب الإسكافي الذي كان ينصب خيمة على الأرصفة منذ الفجر حتى المساء ليعيل أسرة الأرانب الشرهة، تحت رائحة جلود الأحذية العتيقة.

هذا الرجل الشهم وُجد ذات مساء ميتاً بالسكتة القلبية تحت خيمته بين الأحذية.

كما ترمى حصاة في بحيرة وبتلقائية طفل، روت الحكاية المؤسية.

الرجل المرمى في التيه، والزائغ، كان يتأمل الزهرة المحنية تحت الصقيع، هو الأعزل والمشتت والعاري أمام القدر.

ـ حتى الآن لم أقتنع بموته. لاعدالة في العالم. لماذا حدث ذلك؟ ما يزال حياً هنا في القلب. حتى أموت سأظل أبحث عنه.

اعتكرت عيناها. وميض مجنّح بغضب منكسر، حزين. تحول الوميض الرقراق من الزهري والشفاف إلى الرمادي الكامد.

وجهها الآن في مرآة الشمس.

جوّ الصالون بغتة انكمد. بين الرجل والفتاة عَبَر شبح موت،

اخترق الجدران، بعثر ذرّات الهواء وشعاع الشمس القادم من النافذة، والنائم فوق البساط.

في السر هجس الرجل الهارب من روائح الموت، المستكنّ داخل قوقعة الخديعة لبحيرة الروح: هـي ذي الروائح التي هَـرِبْتَ منها تطاردك حتى أبواب البحر.

«كعاشقٍ خط سطراً في الهوا ومحا» عَبَقَ الندى الفيروزي.

وهي في رواق الدمع، آن طُوّقت طفولتها برائحة موت الأب، واحتُجزت هناك، قالت:

- لابد أنني عكّرت عزلتك وأنا أرميك بحجارة أحزاني.

- لا. لا. الحياة تبدو أحياناً خدعة أو عبثاً وربما لا ندري ذلك إلّا بعد فوات الأوان.

بين الشك واليقين قال العبارة وكأنه ملقى في فضاء مرمض ومحتقن.

أية لعنة تطاردك. أنت الهارب داخل السر الطفولي إلى «بحرون» السلام الكاذب، بعيداً عن روائح الموت والاضـطراب.

ولأنه بدا متورطاً على نحوٍ ما، اخترق عبثيته باتجاه فتاة مكسورة وتائهة، كما خيل إليه. سألها: ما الذي أستطيع لمساعدتك؟

- لاشيء. الإنسان وحيد ومهجور وعليه مواجهة مصيره منفرداً. أنت قلت ذلك فيما مضى من الأزمنة. منك تلقيت هـذه الفكرة.

داهـمه إرباك. اعتكار ضبابي في يوم مشمس. المواساة والتضامن الإنساني، تواشج القلب والروح مع الآخر في لحظة المحنة. أيكون هـذا عبثاً وبلا جدوى؟

بحركة تلقائية نهض. طوق الفتاة المتشحة بأساهـا:

ـ العالم ليس مظلماً إلى هـذا الحد. أنت ما زلتِ في فجر طفولتك والحياة رحبة أمامك. انزعي هـذا القناع الأسود واستقبلي الفجر ولمعان الأشعة.

الآن كانا مطوقين، ومتضامين، يرقصان بهدوء في فضاء النسيان عبر التماس العذب للجسد ورائحة زهـور الغابة.

في غمرة الروائح، وصوت البحر يخترق جدران العالم ويحتوي الحزن، سألت: ولكن لماذا الرجال دنيئون ولا يرون من المرأة سوى ما بين فخذيها؟

ـ آسف. ما قصدتُ ذلك. فهمتِ خطأً.

بينهما انشق العالم. صدعٌ فصلهما إلى قارتين.

العزلة المظلمة للروح، وهـيجان الجسد. التضام الإنساني والعبث.

ـ لا. لا. ما عنيتكَ أبداً. لستَ منهم. أنت أبي رأيتك في الحلم. حملت لي وردة على شكل حذاء ووضعتها على مخدتي. هَمَسْتَ لي: أنا لم أمت. أنتظركِ على أبواب البحر.

بحركة شبه مسرحية مباغتة رفعت تنورتها إلى أعلى الفخذين: انظر ماذا فعلوا بي!

فوق الركبتين المرمريتين لاحت كدمات رمادية وخطوط زرقاء.

ـ هـؤلاء هـم الرجال الزناة والمغتصبون!

كانت الآن في مواجهته، على الأريكة المقابلة، وهي في اخضلال الغضب والأسى.

قامت وتقدمت نحوه. تماست به غامرة رأسها وشعرهـا في

صدره. قالت تحت النحيب الصامت: من أعماق الظلمات. من آخر الدنيا حملتني أحلامي إليك لأروي لك سري الخاص. أنت الأب الغريب وأنا البنت الغريبة التي ولدت خطأ في الزمن والتي لن تراها الآن. أستودعك سرّي في آبارك العميقة.

كما في حلم سريالي مهوّم، داخل أدغال وغابات ووديان سحيقة القرار، وسط هوام ووحوش وأصداء كهوف بدائية، في ليلة شديدة الظلمة، روت عن اغتصاب أخ لأخت انتهك عذريتها وحوّلها إلى مومس.

عبر طفولة الفجر وأفول الشمس التي غربت عن وجهها المكتسي بلون الرماد قالت:

- أنا الآن هذه المومس المنتهكة في الشارع.

بغتة أعتم النهار وانطفأ شعاع الشمس. عالياً ومديداً، تنامى من الغرب صدى صخب البحر.

بحرون *1998*

2

دنس

ما كانت امرأة جميلة أو مشتهاة من الرجال، لكنها كانت تبدو صلبة شبه مسترجلة، توحي بذلك ملامح وجهها الرملي، المنقط ببعض النمش، وكثافة الحاجبين الطبيعيين، ثم تلك البحة الرجولية في الصوت.

ورثت من الأسرة وأجدادها مزايا وأخلاق شرقية سماتها: الشرف، الكرامة، الوفاء، التعاطف والمودة وحب الآخرين، وتضامن الأسرة في السراء والضراء.

ومن التاريخ النسوي ورثت الثرثرة، والغيرة، ونرجسية الذات، واغتياب الأخريات.

حين زوّجتها الأسرةُ المؤلفة من خمس بنات وثلاثة شباب كانت في السادسة عشرة. زوجها غير الجميل هو الآخر كان يكبرها باثني عشر عاماً.

حدث الأمر الغريب بلا لحظة حب، عبر لقائين بين الأسرتين في مناسبتين عَرَضيتين أولاهما حفلة عرس في الحي، والثانية احتفال عيد.

يوم رحلت مع زوجها إلى بيته قال أبوهــا للأم: الحمد لله الذي أراحنا من بليّة.

- لكنها بنت طيوبة يا رجل كانت عماد البيت ونحلته العاملة.

- أنا عنيت شكلها الرجّالي غير المرغوب. قال الأب.

كانت المراسيم والطقوس الزواجية قد تمت في يوم واحد.

بعدها حُملت الفتاة إلى بيت زوجها حيث افتضها بهياج وحشي، وفي الصباح تحولت إلى امرأة.

ستروي الأحداث في صباح ممطر، ونحن نشرب القهوة. تحكيها بعفوية واشمئزاز وأسى أفصحت عنه غضون جبهتها، وذلك الزفير الحارق الخارج من أعماق روحها.

- كان ذلك الشيء البشع نوعاً من الاغتصاب.

قالت الجملة وكأنها على أهــبة الغثيان.

مع القهوة أشعلت سيجارة، نفثت دخانها بعصبية.

استمرت تروي في شبه حالة شرود عن طفولتها، وفتوتها التي انكسرت كما غصن شجرة حطمته صاعقة.

- أين العدل في هــذا؟ قل لي.

كان الرجل المنصت مغبوناً، لا يعرف الجواب.

وهي تواصل سرد حكايتها سألت سؤالاً حول غدر الزمن وقسوة الحياة والبشر.

- غدر الناس! هــل عنيتِ الأهــل؟

- غدر الزمن ما قبل بلوغ الوعي. قالت المرأة.

شدّ ما بدت تلك المرأة مجروحة، وممرورة. جرحها يكاد يفيض من شفتيها ومن نوافذ الاحتقان المسدودة في كهوف الروح المظلمة.

واصلت فيض مرارتها عن الرجل شبه العنين. رجلها الذي يرى في الجنس نوعاً من النجاسة والتلوث.

ـ هل هو أصولي دينياً؟ سألها.

ـ لا. هو لا ديني وغير مؤمن. لا يصوم ولا يصلي. بل يرى في الأديان إعاقة للتطور والتقدم.

ـ شيوعي؟ سألها.

ـ لا. لا. عدمي. لا يؤمن بشيء له معنى في الحياة. قالت المرأة.

ـ هل هو لوطي في تقديركِ؟.

ـ لا أدري. لا أظن ذلك. قالت العبارة وهي تضحك خجلة.

واستطردت: لا أضعه في ذمتي. الظلم حرام.

وواصلت قائلة بأنها لم تكمل الحكاية بعد.

ـ بعد هجر الفراش لمدة شهرين لم يقربني فيهما بدأت شكوكه حولي. تحولت إلى لامبالية. صار في نظري ممقوتاً لايطاق، فأهملته. وهكذا بدأ يتهمني بالخيانة.

ـ هل خنته مع آخر؟ سألها

ـ لا. أبداً.

ـ لماذا غيرته وشكوكه إذن!

وراحت تسرد عن الأصدقاء، أصدقائه الذين يسهرون في البيت، هؤلاء الذين صاروا أصدقاء العائلة.

- كان يغار من اهتمامي بهم وتقديم الطعام والشراب والضحك والسمر الليلي ونحن نشرب ونروي النكات المثيرة أو الوقحة أحياناً. وفي حالات خاصة نرقص معا ونغني.

كانت هناك زوجات أخريات يشاركننا. لحظات مرحة وعفوية كان يبدو خارجها. يشرب ويدخن وهو كظيم وعابس مثل الحجر الأصم.

وسألها مرة أخرى إن كانت قد استهوت رجلاً من هؤلاء، ورغبت أن تنام معه.

- كانت هناك حالات وسوانح للخيانة. أكيد. أنا امرأة محروقة جنسياً ولست قديسة.

- هل نمت مع رجل؟ سأل المرأة.

- لا. لم يحدث ذلك.

- لماذا؟

- التربية. الدين. الشرف. العائلة. الوفاء الزوجي هذا الذي سرى مع الحليب والهواء في بيت العائلة.

وهو يرنو من النافذة إلى أزهار شجرة الدراق الربيعية في الحديقة الخضراء سألها: بعد الهجر الطويل ألم ينمْ معك؟

- حتى لا أقع في الخيانة أنا أثرته. استحممت وتعطرت وتعريت وضاجعته بوحشية مماثلة لوحشيته ليلة زواجي.

وروت ما حدث بعد عملية الجنس. كيف نهض عارياً وهو محتقن أصفر الوجه، متجهاً نحو المغسلة. دفع أصابعه في حلقه وتقيأ. وحين سألته عما به أجاب مغمغماً: هذه القذارة الحيوانية.

ـ لابد أنكِ أديت ضريبة بلهاء وفاء للميراث الغبي المتناسل. قال الرجل بعد صمت.

وقالت بأنها لا تريد أن توصم بالمومس في عالم لا يرحم المرأة التي تنحرف.

كانا معاً الآن. وحيدان على مسافة ذراع في بيت معزول داخل الغابة الخضراء الغامضة، المبللة بمطر الربيع، يسمعان خلال فسحة الصمت، النداء الوحشي، ورائحة الأصوات وأصداء الطبيعة، داوية من حناجر البراري والطيور والثعالب والغزلان، وأعماقهما.

رجل وامرأة يشتهيان العري، ويتخيلانه داخل مرآة يسكنها زوج يسِمُ الجنس بالانحطاط الحيواني والدنس.

3

ميلانة

كانت صبية من جميلات النساء في زمانها. في فجر صباها أغوت الكثير من الشباب وفتنتهم. عشقت كما يليق بموهبة جمالها فأعطت جسدها ما يستحق من متعة ونشوة، غير عابئة بأسوار العالم المحيط وترانيم أخلاقه.

ولدت في أسرة ريفية نزحت فيما بعد إلى المدينة.

أبوها الضابط في الجيش كان رجلاً أخلاقياً، متزمتاً وملتزماً بالانضباط العسكري. يرنو إلى الصعود المراتبي ليكون في المستقبل قائداً مرموقاً ذا نفوذ وثروةٍ، أسوةً بغيره من الضباط الكبار وذلك رغم ما يبدو عليه من بلادة وخمول ذهن، وفظاظة الطبع الريفي الفجّ.

في البيت الذي مُنح له كشقة من ثلاث غرف وصالون، أثثه بشكل لائق وجميل، كان هناك ولدان وابنة وحيدة، هي ميلانة الوسيمة. ولأنها جميلة وحيوية وشيطانة كانت قريبة من قلب والدها وحبيبته المدللة.

ـ ما ترغبه ميلانة يُستجاب. يقول الوالد.

- أنت تفسدهــا بالدلال. تقول الأم.

يمتعض الأخوان الغيوران من هــذا الدلال والتمايز، لكن الضابط الأب كان يحسم الأمر كما لو أنه يصدر قراراً عسكرياً: هــذه وردة العائلة.

يسود الصمت. تجري ميلانة ابنة السنوات الست نحو والدهــا وترتمي ضاحكةً في أحضانه: يا أعظم بابا في العالم!

تدغدغه عبارة العظمة، وهي تلامس خيلاءه ورغباته الداخلية فيحتوي الطفلة بين ذراعيه ويقبلها بحنان وشغف.

في الدراسة ستفشل ميلانة.

تعجز عن النجاح في الشهادة الثانوية. تتعثر بجمالها وصباها ودلالها وعشق الفتيان لدلعها وأنوثتها ولسهولة استجابتها لأول إشارة أو ابتسامه.

ما كانت رخيصة ولا مبتذلة. كانت تختار الفتى المغوي والوسيم والمشاكس بين الطلاب. تسير معه علناً في الشوارع ويدخلان الحديقة العامة، يتبادلان القبلات في غفلة، ويتناولان القهوة في كافتيريا تحت ضوء الشموع الخافتة.

لكنها كانت من النوع الذي يسمى باللعوب. فهي لا تتوانى عن استبدال فتى بآخر إذ تشعر بالملل أو غيرة صديقها، جرّاء مرحها وعبثها أو مراقصتها لشاب آخر في بار ليلي.

ولأن ميلانة فتاة حرة من الداخل، توجهها نوازعها الطليقة وسَموهــا بالبنت الفاسدة والفلتانه، وقال عنها أحد عشاقها المهجور من زمن الدراسة الإعدادية بأنها فتاة مومس بالفطرة، تبدّل عشاقها كما تبدل جواربها.

رائحة سلوكها الخارج على الأعراف والأخلاق وصلت إلى البيت، استنفرت الأسرة، والأم هـددت ميلانة بسطوة الوالد - الضابط المهدد بتلوث السمعة.

حاولت الأم بتوجيهاتها التربوية والأخلاقية إعادة ابنتها إلى صراط الاستقامة والكف عن رعونتها وسلوكها الأهـوج، لكن ميلانة استدارت بعيداً عن ضوضاء الكلمات ودخلت غرفتها ثم أغلقتها.

حين وشت الأم بالرائحة لزوجها سراً ترنح خيلاؤه العسكري وطموحه. شعر في لحظة شاردة عن البلادة الكامنة في دماغه أن خططه في خطر.

في غرفتها بعد صيام يوم كامل عن الطعام والعزوف عن الخروج بدا الحوار ساخناً مع والدها.

هي ردت على ما قيل ويقال وما سُمع عنها باحتدام وعناد.

قالت بأن حياتها هي حريتها ولا يحق للآخرين تدجينها أو سجنها أو تحويلها نحو مجرى أعرافهم.

وقال الأب بأن هـذا التفكير صائب، لكنه ينعكس على الأسرة سلباً: إنه يضعنا في ساحة الفضيحة.

- وما هي الفضيحة؟ أن تكون فتاة طليقة في مجتمع السجون والكبت! قالت غاضبة.

وتحدث الضابط الطموح، والمتمرس بتربية ثكنته العسكرية عن الفروق بين الفوضى والانضباط. عن الحدود ونقاط التفتيش، وكلمات السر، وصعوبة اجتياز المناطق الخطرة وحقول الألغام، والأسلاك الشائكة، وتربص العدو في الجبهة

المعادية: هذا هو العالم كما أراه. وأنت تعبرين فيه وليس في الفضاء.

وردت ميلانة بنزق الفتاة المدللة: المجتمع مستبد يلغي حرية الفرد، وهذه التقاليد بالية وأسوارها تضع البشر كالحيوانات في أقفاص.

- عليك أن تفكري ابنة من أنت. سمعتي مهددة كذلك مستقبلي. قال الوالد بشحنة من التهديد الغاضب.

- لن أكون إلا ما أنا عليه. أفضّل الموت على أن أوضع كغزاله في قفص.

بدا الحوار مغلقاً.

في مؤتمر عائلي لم تحضره ميلانة قررت الأسرة تزويج الفتاة ستراً لفضيحة الأقاويل والشائعات التي تنامت عن علاقة ميلانة بمغن شعبي رقيع، يغني في البارات والملاهي الرخيصة وفنادق الدرجة الثانية.

تمّ زواجها من ابن عم لها كراهـيةً. كان شاباً فاشلاً في دراسته لم يحصل حتى على الشهادة الإعدادية، ولأن عمه ضابط مرموق استغل الأمر مع زمرة من أصحابه الفاشلين في الدراسة وراحوا يمارسون أعمال التهريب.

بدؤوا بالدخان والويسكي والمسجلات والكاميرات، وانتهوا إلى تهريب الأسلحة والمخدّرات.

ليلة الزفاف شعرت ميلانة بمرارة الاغتيال، والمَهانة.

أدركت أن حرية المرأة في بلاد الشرق، هـُراء، وأن الميراث السرمدي والإلهي الذي يمسخ المرأة ويذكرها بجدتها جارية العصور الغابرة، ما زال يسري في الدم.

وفي تلك الليلة اكتشف ابن العم المهرب أن عروسه ليست عذراء، لكنه صمت وكظم غيظه ومهانته.

في ليلة قمرية وهما يتسامران على شرفة البيت سألها عمن يكون الرجل الآخر.

- أي رجل؟ سألت بنزق.

- الرجل الذي نمتِ معه.

- هل سألتك عن ماضيك والنساء اللواتي ضاجعتهن قبل الزواج؟ ردت بحنق.

وباهتياج من ثُلم شرفه قال: لكنني زوجك ومن حقي أن...

وقاطعته صارخة: ليس من حقك سوى مِنَ الآن. حياتي الماضية أنا حرة فيها.

صعد الغضب في دمه إلى كفه التي صفعتها: يا لكِ من ساقطة.

- أيها اللص والمهرب. قالت وهي تمسح دم أنفها.

الآن لاح في الفضاء والأعماق أنهما تعادلا.

بعد أسبوع من حادثة الشجار وإثر عودة الزوج من عملية تهريب لم تكن ميلانة في البيت.

سيقول الرواة وبعض الشهود في الحي والمدينة بأنهم شاهدوها ليلاً مع مغنيها في إحدى ضواحي المدينة، في متنزه شعبي للغناء والرقص، حين بوغتا برجال غرباء يقتحمون المكان ويطلقون النار من مسدساتهم في الهزيع الأخير من الليل.

4

ابتــهال

يوم بدأ بتشييد تلك الشاليه المطلة على البحر كان مغموراً بسعادة زوجية لا حدود لها. هنا على أبواب البحر سينسى مع أطفاله القادمين والزوجة الجميلة أحزان ومآسي الزمن الماضي. هــذا ما اقترحته المرأة التي تحب البحر والأسفار والحرية.

ولأنه عاشق بعد نصف قرن من عزوبية الفوضى، مزهــو بهذه الصبية الوردية التي هــبطت عليه من جنائن الخلد الساحرة، انصاع لرغبتها في تشييد بيت يقول له البحر:

صباح الخير أيها الجار الصديق.

هــو ما كان في الأزمنة البائدة من عمره، ولا في مدى أفقه النفسي، من هواة الطبيعة والبحر.

كان من محترفي المدن والمال والسمسرة والسكر وليالي القمار، والنساء العابرات. آن رمته المصادفة العمياء بهذه المرأة العاشقة التي بهرته ذات مساء غريب، شعر بها تصعد في نسغ دمائه لتحيي ما كان ميتاً فيه.

ولأنه كان في خريف الزمن، مأخوذاً بإيقاع حياة مشبعة بالتفاهة والمجرات الساكنة، زلزله حضور هذه المرأة التي أمسكت بأفلاكه ومجراته وبوصلة أيامه وهي تقول له:

ـ الاتجاه كان خاطئاً فيما مضى. حياتك القديمة، الخاوية، انتهت. زمانك القديم يفوح برائحة العفن. الآن سأوجه سفينة زمانك الضائع.

هو الذي كان زائغاً، ومُرمى في لجج الفوضى والوحل فيما مضى، لم يعترض.

مذ وقع في تيه الليالي، والخواء الروحي، والعبادة الشيطانية لرب المال في عصر النهب واللصوص والفساد العميم والمبارك، كان يحلم في لياليه بامرأة تعيد إليه توازن الروح المفقودة.

امرأة حليمة، نقية، معصومة عن الزلل. نقيض النسوة الشرسات المولودات من جشع موائد القمار والسكر، وفضلات الرجال الأثرياء.

ـ متعب أنت يا حبيبي من ضنك الأيام وآن لك أن ترتاح.

قالت وهي تعانقه.

ـ آه يا كنزي في خريف الزمن!

قالا ذلك وهما منغمران في نشوة الحب العاري.

ولينسى الماضي المضطرب وبؤسه الروحي، فتحت له أبواباً من المسرات الجسدية لا عهد له بها.

خرجت به من عزلته الخانقة إلى العالم والطبيعة.

رحلات جماعية. سهرات في بيوت أصدقاء يهوون الرقص والموسيقى والغناء. أسفار إلى بلدان أجنبية ما حلم بها. أخيراً هـبطت عليها فكرة شاليه البحر.

عبر هـذه المحاولات للتغيير، كانت تحدث بينهما جدالات وخصومات راحت تتحول إلى شجارات مشحونة حول جدوى هـذا التحول والإيقاع الجديد لحياة بدت له عبثية بلا معنى.

تراءى الانتقال من حياة قديمة، راسخة في الأعماق، وذات إيقاع رتيب لرجل في منتصف عمره، أمراً صعباً وشبه مستعصٍ.

بعد هـمود برق الحب وذبول نرجس الجسد الذي ما عاد عبقاً وساحراً كما كان في الأيام الأولى رنّت أجراس الحنين إلى الزمن القديم.

سنوات السعادة، وعودة الشيخ إلى صباه دخلت محاق القمر.

ـ كلهن نساء في آخر المطاف.

هجست له الساحرات القديمات في مواخير القمار والسكر والليالي السوداء.

هكذا ابتدأ الرنين لدورة الدم القديمة. دورة اللولب للبشر والزمان العصي على التغيير.

بعد عام، وعبر الشائعات، تنامى إحساسه بالحصار والضآلة جراء تصوّر امرأة تقوده وتتحكم باتجاه بوصلة أيامه.

ـ هي ذي امرأة تسيطر على رجل. قالت الشائعات.

- هـذا الذي كان سيداً أبداً وتركع النساء تحت قدميه، انظروا ما تفعل به امرأة في عمر ابنته.

- الرجل عبد للشهوات.

- ابحث عن المال لا الرجال في هـذا الزمن. سرّهـن في جيوبهم لا في رؤوسهم.

- بل سرّهـن تحت سرّاتهم.

تدوي النمائم والثرثرات كما خلايا النحل في الربيع.

الرجل الشرقي، النائم في خلايا الدم استيقظ.

بدأ دبيب الغيرة يشعل النيران في أعقاب السهرات والرقص مع الرجال الآخرين.

المرأة المرحة، الضاحكة بصخب، والمحتفلة بصباها وينابيعها الدفاقة في ليالي المرح، أوقدت النار في أعصاب الرجل.

بغتة ارتد إلى حياته القديمة، هـاجراً البيت والمرأة والزمان السعيد.

ذات صباح وهما يشربان القهوة حدث عتاب، تطور إلى جدال انتهى بشجارٍ داوٍ رُشقت فيه التهم والشتائم حول العهر والفسق، أودى بالرجل إلى ضرب المرأة بوحشية تركت آثار كدمات على الوجه الجميل، المعبود فيما مضى.

فجر يوم خريفي استيقظ الرجل فلم يجد زوجته في البيت. قالت الرسالة التي تركتها قرب السرير:

«لا جدوى منك. عُدْ إلى تاريخك المظلم وكهوفك التي جئت منها. الضوء يعميك لأنك ولدت في العتم. لاتذكرني. وداعاً».

بعد شهر وقع الرجل فريسة كآبة تحولت فيما بعد إلى مرض عُضال أودى به إلى الموت.

الشاليه التي شُيّدت أعمدتها العارية هناك على الرمال، شرفاتها المهجورة بكت رجلاً وامرأة كانا يحلمان بالوصول إلى البحر.

التمـوّجـات

«للبحر وحده سنقول

كم كنا غرباء في أعياد المدينة»

سان جون بيرس

فوق عينيه ووجهه وضع الرجل راحتيه، وتنهد. صعدت النهدة الموجعة من حقول القلب، أراد أن يقول شيئاً ما تحت جناح الليل. شيء لا يرغب أن يراه في وضح النهار الفاضح.

من خلال موشورات الأصابع لمعت أضواء المدينة، وأمواج البحر. وإذ مال الرأس إلى الوراء والأعلى بحركة متعبة، تلألأت نجوم بعيدة في سماء بيروت.

- غزة كهذه النجوم السحيقة الآن!

قال الرجل العبارة بينما كان الليل الطفل يستمع للنشيج ويرى قطرات الدمع تتسلل من أطراف الأصابع.

أمامهما البحر. بحر الرميلة بموجه الشبيه بقطعان مذعورة، والشمس مدىً من الماس. لقد جاءا من أقصى المدينة مسافة عشرين ميلاً. عندما يسأل غيلان الدمشقي: لماذا هـذا الرحيل الطويل والبحر على مرمى حجر؟

(*) تنويه: يُعاد نشر قصة «التموجات» في هذه المجموعة بعد أن فُصلت قصة «حقل أرجوان» كرواية صدرت عن دار ورد، وبعد أن كانت القصتان في كتاب واحد صدر في العام 1980 عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

يقول بشر الغزاوي باحتفالية: لأشعر بأنني رحلت إلى البحر. ثم يردف: هـذا الشبيه ببحر غزة البعيد.

يبدو المشهد البحري مضيئاً ومهيجاً.

النساء نصف العرايا يلمعن كاللآلئ وهـن يتراشقن بالماء. قطراته تسيل من منحدر النهدين نحو السرة باتجاه الأودية. غير أن بشر بن عبد الله الغزاوي يبدو خارج المشهد.

مذ يطأ الرمل الحار تبدأ استعراضاته وحركاته الاحتفالية مع صاحب المسبح والنُدل والمرأة التي تدير البار والمطعم. يطلب السمك الطازج والبيرة وسيجار الهافانا، ثم يتبختر باتجاه الشاليه. وهـو منبطح فوق الرمل تنشط ذاكرته الميكانيكية فيبتدئ خياله الجموح بابتداع قصص وهـمية عن السفر والنساء والحرب والثورة، والنزوح المتواصل.

مرة أو مرتين يبتل بالبحر، ثم يعود ليحتسي البيرة ويدخن الجيتان متابعاً قصص البطولة القديمة والحزن.

هـذه القصص تتواصل وهـما على المائدة إلى أن تهوي الشمس وراء الأفق.

بعد هـذا السيلان المتلاحق كموج البحر، يسأله غيلان وهـما عائدان إلى المدينة: هـل أنت متأكد أنك رحلت إلى البحر يا عزيزي دونكيشوت؟!

المرأة التي حضرت في ذلك الغسق المتأخر، سمراء طويلة الشعر. شفتاهـا شهويتان، لكن وجهها في قساوة الحجر.

بدت آنذاك حزينة بعينين تقطران طفولة.

على السرير المقابل جلست. في البدء ما نبست بأكثر من: آه. ما أقذر الدنيا!

بدا الرجل المتكئ على عارضة السرير الخلفية يعاني من مغص معوي، ومن كآبة.

كانت هناك موسيقى. وبين السريرين طاولة عليها أوراق ومنفضة وعلبة سجائر.

ـ هل كنت تكتب؟

ـ لا. كنت أحضّر نفسي للنوم.

ثم رزح الصمت بينهما. وإذ سألته إن كان مستغرباً حضورها المتأخر في هذا الليل، نفى بهز رأسه.

وقالت المرأة: أوصلني صديق إلى هنا بسيارته. آه. ماأقذر العالم!

من النافذة الضيقة والعالية، والشبيهة بنوافذ الزنزانات، أقبلت موجة ريح صيفية.

وقالت المرأة: ألا تخاف وأنت وحيد في هذا البيت؟

كان الآن منطوياً على جسده وقد جمع اللحاف حتى رقبته. وقال بضعف: أشعر بالبرد.

وما كانت العبارة لتتجاوز أفقها الفيزيولوجي.

بغتةً قالت المرأة: الرجل الذي أوصلني إلى هنا سألني لماذا أذهب إلى رجل آخر في أواخر الليل. فقلت: لأنني أشعر بالكآبة.

ورد بنزق: بل أنت تكذبين، إنني أشتهيك وها أنت تذهبين إلى فراش رجل غريب. ألا تخجلين من ذلك؟

كانت تتكلم وأصابعها تغطي عينيها وشعرها مسدل حتى حوضها. انسياب شعرها الطويل يبدو كأغصان تتهدل على حواف السرير.

وسألها إن كانت ترغب شرب شيء ما فرفضت. وخلال لحظة بدا محرجاً ومرتبكاً. كان التشنج المعوي يتموج ويعلو، وراح الرجل يحرك أصابع قدميه لتدفأ.

تناولت المرأة كيسها وأخرجت سجائر ودخنت.

ـ قلت للرجل الذي جاء بي: لا أعرف كيف أقنعك بأنني لست عاهـرة. غريب! يا إلهي. لماذا نحن هكذا؟

وسألها الرجل الملتحف: من نحن؟

ـ العرب.

ـ أي عرب؟

كان صوت البحر ينمو عبر أدراج الليل. واستوضحت المرأة إن كانت مزعجة وثقيلة ومملة في هـذا الوقت المتأخر، ونظر الرجل نحوهـا باندهـاش: لماذا تفكرين هـكذا؟

ضغط النفس والجسد ونهض إلى الحمّام ثم عرج على المطبخ ليعد الشاي.

كان الفجر ينمو من الشرق، وريح الصباح المنعشة تتغلغل في المسام.

ـ أعددت لكِ شاياً. قال ذلك وهـو يرتعش. وصب لها وله. أحس بالدفء وهـو يرى بخار الشاي الصاعد.

ـ لماذا لا تجلس قربي. هـل أنت خائف؟

ـ لا. إنما هـناك شيء آخر.

ـ ما هـو؟

ـ البرد.

شربا الشاي وهما متقابلان، ودخنا.

خف ضغط المغص، وانحسرت موجة الكآبة.

وقال الرجل مبتسماً: بودي أن أرقص لك!

فاجأتها العبارة فضحكت: ترقص؟

ـ بلى. وماذا في الأمر؟

ـ ولكن لماذا؟

وقال: لتزول كآبتك!

أزاح الطاولة وابتدأ يرقص. وراحت هي تصفق وتبتسم وترمي الكآبة خارج الغرفة. بعد الغبطة فوجئا بالصباح الطفل يضحك وهو يملأ البيت.

وعدوني بمنصب كبير هنا أو في الخارج. سيكافئونني على ما قدمت للتنظيم.

ـ مثلاً؟

ـ مكتب في الفاكهاني أو سفير في الخارج.

ـ عظيم.

ـ أنت تسخر؟

ـ أبداً أخي بشر. فقط أستمع وأشهد.

ويتابع بشر الغزاوي: اسمع أخي غيلان. أنا أعرف إمكانياتي. لقد خبرتها في الحرب والسلم وخرجت باستنتاج لا يقبل الاعتراض: إنني قادر أن أصنع شيئاً، لا أقول خارقاً، لكنه مهم جداً لشعبي وثورتي.

من شرفة البيت يلمح غيلان الدمشقي شهاباً يهوي فوق

سطح البحر ويتلاشى. ووراء البحر يرى طرطوس الجميلة، البسيطة، الغبراء، وجزيرة أرواد الممتدة في عرض البحر كتمساح ضخم.

وبيروت شوارع من الحوانيت، وفنادق الدرجة الأولى، ومقاه أنيقة للسياح وبارات وشاليهات، وسيارات مرسيدس سوداء، ثم المرفأ الذي تهبط منه صناديق الويسكي والمارلبورو ومسدسات الماغنوم وأكياس المخدرات المهرّبة.

- بالأمس سهرت في الكورال بيتش. أتعلم ماذا حدث؟ يتحدث الرجل المهم المسمى بشر الغزاوي. يقول غيلان: لا. لاأعلم ماذا حدث! يتابع بشر: يا سيدي وأنا أراقص صديقتي حدث هرج وأصوات وذعر. توقف الرقص والموسيقى وخرجنا كالمجانين. سألنا عن الخبر فقالوا: طلقات رشاش 500 انفجرت فقتلت أربعة: رجلان وامرأتان كانوا عراة ليلاً على الرمل. تصوّر!

ضحك غيلان: تصوّرت والتقطت لكل منهم صورة دموية.

- آه. أنت تسخر؟

- ولو! فقط أتصور المشهد الحزين.

- تصور يا سيدي. قبل ذلك بيومين مارست الجنس مع صديقتي في المكان نفسه.

- وعلى الرمل؟

- على الرمل قرب حافة الموج.

- آه. آه. لا بد أن رامي رشاش الـ 500 كان نائماً آنذاك. أهنئك.

- على ماذا؟

ـ أنك بقيت على قيد الحياة لتصنع شيئك المهم لشعبك العظيم في الأزمنة القادمة.

مشهد رمزي خاص من سيناء الـ 73

الغزلان التي طوردت في ذلك الفجر البهيج، كانت قبل المطاردة ممتلئة بالبهجة. بهجة الوصول إلى منابع الماء والمرعى.

كان صباحاً مفعماً بالعذوبة والضياء كما كان صباحاً نابضاً بالغدر، وكانت الغزلان التي تعدو في عمق الصحراء تحت أمواج البهجة لا ترى الصيادين ببنادقهم والعربات الوحشية، وفي المقدمة كان أيّل الطليعة يندفع بالغزلان وثباً نحو حدود الشمس.

حين كان القطيع يضعف تحت وطأة المطاردة، يرتد الأيّل صارخاً بالغزلان كي تتقدم.

ريح الصباح كانت رخاء، وفوق جباه وصدور الغزلان المبللة بالعرق، راحت الشمس الدافقة من الشرق تتلألأ، غير أن الموت كان ينبض من الشمس ومن الريح ومن ذرات الرمل المتطايرة.

ما تزال الغزلان الجامحة تتواثب كأمواج بحر، في الوقت الذي كانوا يقتربون فيه ببنادقهم سريعة الطلقات وستراتهم الخاكية.

فجأة من الأمام والجوانب، فوجئت الغزلان بالكمائن فابتدأ دوار الشمس.

إذ ابتدأ الإنهاك راحت الغزلان تتهاوى وتركع. وفي تلك

اللحظة الخائنة انهمر الرصاص من الوراء والأمام والجوانب. كان القطيع الآن داخل الدائرة المغلفة في عمق الصحراء المهجورة.

في مساحة الدائرة داخل حقل الرمي الصحراوي، راحت الغزلان المذعورة تثب نحو الأعالي وهـي تتصادم وتتلقى الرصاص في الرأس والصدر والفقرات. وابتدأت الصحراء تصرخ وتنزف.

كانت الأرض تتوجع بأصداء بعيدة جارحة، تحت سماء ساطعة الضوء. تحت سماء بهية محايدة.

عندما استدار أيّل الطليعة ليهيب بالغزلان أن تنهض، رآهـا ملفعة بدمائها فوق الرمل. عبر لحظة كالبرق دار حول القطيع الدامي ثم اندفع كشهاب باتجاه صدور القتلة وهـوى.

وقال بشر الغزاوي: انتهى عصر الحب وجاء زمن القتل. أنا مع الإرهـاب في زمن الحصار. بالأمس غزة وفيما بعد سيناء والجولان ثم جنوب لبنان. ما الذي بقي لنا غير هـذا الشارع الأخير المطل على البحر!

ويتابع وهـو يحتسي السكوتش: صرنا كجند طارق. البحر وراءنا والعدو يتقدم نحونا. ابتسم غيلان الدمشقي: لا تحزن ياأخي ولا تغضب هـناك العرب.

- أي عرب؟

- عرب الحروب الأربع.

- عرب الهزائم المتواصلة! هـيه. هـيه. طظ. أخي غيلان هـل لديك سيجار هـافانا «سبيسيال»؟

ـ لماذا؟

ـ لنأخذه معنا إلى البحر غداً. بعد وجبة سمك وعرق توما الأكويني يطيب السيجار.

ـ والنساء أخي بشر هل نسيتهن!

ـ صدقني قرفت منهن. أنا ما عدت أرى في المرأة أكثر من فراش. أنت ربما تحتج لكنني أقول لك، وأنا أكثر خبرة منك، أن في رأس كل امرأة مشروع مومس. هذه حقيقة لا تقبل الجدل.

ـ لا بد أنك مناضل وثوري من طراز جديد في هذا المجال حتى استنتجت ذلك!

ـ أنت تهزأ؟

ويرتج غيلان بضحكة شبيهة بطلقة.

بشر بن عبد الله الغزاوي، يرمي طرف حذائه على حافة إفريز الشرفة لافاً قدماً فوق أخرى.

أمامه يمتد الليل والشبابيك الناعسة بالضوء خلف ستائر مسدلة.

فجأة ينتفض: انظر. انظر. هناك امرأة تتعرى.

ويقول غيلان: هذا من أجلك لا بد.

ويقهقه بشر: هوه. هوه. أنت ماذا تعرف عن النساء ياعزيزي القديس. افتل لهن إصبعيك في الهواء فيتبعنك ككلاب الصيد.

وفي التو يفرقع، باستعراض تمثيلي، إصبعيه في فراغ الليل الهادئ.

يحدث ذلك في اللحظة التي تبدأ فيها القذائف العمياء انفجاراتها في أحشاء حي الشياح.

بين الصحراء التي اغتيلت فوقها الغزلان، والمدن البعيدة، امتداد بحر لا يُعبر. وغيلان الدمشقي، من شرفة بحر الرملة البيضاء، يرى البحر الممتد جنوباً حتى غزة، وشمالاً حتى طرطوس. وتحت الشمس يرى البحر الذي انشطر بإعصار الريح الإسرائيلية والريح العربية.

في مهب هـذه الرياح التي تتآخى في لحظة الحصار، ثم تنشطر في لحظة الرعد، كان بشر بن عبد الله الغزاوي يقاتل ويطارد ويلتجئ، ثم يسكر ويتحدث عن الجنس وسيجار هـافانا وتل الزعتر.

وهـما مرميان على الرمل الحار يمتد بصراهـما عميقاً نحو الشمال والجنوب. لا بصر بشر يصل غزة، ولا بصر غيلان يصل طرطوس وأرواد.

بعد ارتداد طرفيهما تتصادم العيون بالعيون، فتشع تحت بريق الدمع حقول غزة البرتقالية وسهول طرطوس الخضراء.

المدية

طعنة تلك المرأة كانت قاسية. جاءت مباغتة في وقت الحصار، في وقت العري الكامل. ولكن لماذا تواقتت مع لحظة اغتيال الغزلان في الصحراء المديدة.

لم تقل وداعاً. فقط استدارت، هـاربة مع الرجل الآخر.

هـربت عندما كانت سماء بيروت تلتهب، والأرض العربية تتشقق بالبكتريا والجراثيم والحليب المسمم، والهجوم المضاد.

بشر الغزاوي عاتبها قبل الهرب: لقد خنتني مرتين ومع ذلك بإمكاني أن أصـفح. نحن يا ريم معاً في خندق ثوري واحد وعلى الثوار أن يكونوا أوفياء.

غير أن المرأة السمراء، ذات الشعر الطويل، والوجه الغجري، نفضـت شعرهـا إلى الوراء وانطلقت في فضـاء الرجل الجديد، الرجل الذي صـار سماءهـا ودمها الجديد.

ـ المرأة إذ تقرر أن تخون تتحول إلى كلبة مسعورة. إنها تفعل ذلك في الساحات والشوارع في وضح النهار. يقول بشر الثوري.

ثم يستطرد وهـو على حافة الدمع: من خيانة الوطن إلى خيانة المرأة. يا إلهي نحن قوم نتعمد بالخيانة منذ هـولاكو حتى خيانة زليخة امرأة الفرعون. يتنهد مغبوناً.

الاستثناء عندك يتحول إلى قاعدة. أنت يا صاحبي غزال ينزف. يقول غيلان.

يصرخ بشر بصـوته الحاد راجّاً سماء الله الخرساء: الزمن الفلسطيني هـو المجروح وأنا ابن هـذا الزمن المغدور.

ستقول المرأة التي اسمها ريم: كنت مهانة في الزمن القديم. لسنوات ست وهـو يقطف زهـرة عمري، وعندما ملني وابتدأ شبابي يغرب استدار عني باتجاه نساء بيروت في شارع الحمرا ورأس بيروت والروشة والكورال بيتش. ثم تقول: لا أدري ماالذي حوّله من يساري متطرف إلى محترف حانات وملاهي.

رجل كان يبدو في بداية حبنا وانخراطنا في المقاومة مصنوعاً من الفولاذ والثقة بالنصر. كنا معاً في خلية سرية داخل منظمة يسارية ونعمل داخل المقاومة لإقامة سلطة ثورية على مستوى الوطن العربي. من أوروبا قدمت معه. هناك تعرفت عليه. مع الزمن تأقلمت. تعلمت اللغة والعادات وصعوبة الحياة الجديدة. كان يقول لي: إننا نعمل لتغيير وجه التاريخ في هذه البلاد المتخلفة والمضطهدة والمنقسمة. عشنا حياة بسيطة، فقيرة. في رأس النبع ثم انتقلنا إلى الفاكهاني. كانت غرفتنا بحجم تابوت. سرير وكرسيان وطاولة وأدوات مطبخ متواضعة وكنا سعداء كطيرين عاشقين. إبان الحرب عملت مع الاتحاد النسائي في شاتيلا والشياح وبرج البراجنة. هو كان يقاتل في رأس النبع وفيما بعد انتقل إلى تل الزعتر. سنوات الحرب كانت رائعة رغم قسوتها وأخطائها. كنا نعتقد حقاً أننا نفعل شيئاً مجيداً. شيء سيغير وجه الدنيا. في عيون الشهداء والحماسة الفتية للمقاومة والبروق التي أشعلتها الثورات في أمريكا اللاتينية من التوباماروس إلى كوبا غيفارا وكاسترو، كنا نرى الحياة الجديدة. يأتي الرفاق إلى كوخنا الصغير في أوقات الهدنة. نجلس على الأرض بثيابنا الوسخة ورائحتنا التي أنتنت من قلة الماء وقت الحرب. ندخن ونشرب الشاي وبعض النبيذ، ثم ندخل في حوارات حادة حول الحرب الأهلية وانحرافات المقاتلين والسرقات وعظمة الشهداء وبسالتهم، وإمكانية مدّ نار الحرب إلى كل بلاد العرب لتحرق العالم القديم، وبناء مجتمع الاشتراكية والحرية.

في ذلك الوقت اللاهب، وبعد أن ينصرفوا، ننام معاً بشوق من سيموت بعد لحظة الجنس. هو كان يسأل: في الحرب لماذا يتدفق الإنسان بالجنس؟.

وكنت أقول: ليرد شبح الموت.

ويقول: هـل ستفرقنا الحرب؟

وأقول: ألا ترى كيف نحن متداخلان كالجذر والتراب تحت لهيب الحرب!

- ولن يخون أحدنا الآخر؟

- الحرب تزيدنا وفاء.

وإذ ينشق جسدانا بقصف مفاجئ، ننهض. نتناول أسلحتنا ونعدو إلى مواقع الحرب.

الانسحاب

الساعة الآن تشير إلى العاشرة مساء. لقد صـدرت الأوامر بالانسحاب عن طريق الجبل. خمسون مقاتلاً اتجهنا شرق المعسكر وشققنا طريقنا عبر الوادي. كنا نجتاز الصخور المسننة وأجم السنديان والعرعـار والزعـرور. على غير هـدى نسير باتجاه الجنوب والشرق. إننا نثب بسرعـة فهود مطاردة تحت هـذا الليل المطارد.

وتحت هـذا الليل أفكر بزوجتي رغم ما حدث، وفي الوقت نفسه أفكر برفاق المخيم. إذ أصـحو من أفكاري أتساءل إن كنا سننجو أم سنموت؟.

أتذكر الموت. الجثث المطروحة في أزقة المخيم. كذلك أرى الأشباح وهـي تركض هـي ذي تصيح. أسمع صوتاً ينادي: سلّم. سلّم. قف. سلّم نفسك.

الطلقات تئز من حولنا. أركض وأنا داخل حالة من الذهول والرعب. الجميع يركضون. كان العدو يقترب منا. لمحته وأنا أحاول عبور رصيف إحدى القرى. بسرعة وثبت واستطعت تجاوز الرصيف.

بدأ العدو يطلق النار بغزارة وهو ينادي بأعلى صوته. صوته كان يدوي عبر الأودية والقرى والسماء: سلّم نفسك.

شعرت أنني معلق بين السماء والأرض. كانت المسافة هي مسافة السماء عن الأرض. كنت أطير وأنا أتضرع أن أصل حدود الأرض. أرض النجاة والأمان بين طلقات تشق طريقها حولي. طلقات تحصد الحجارة والشجر وتجرح الصخور. كحزام خاطف كانت تبهق من حولي، وكان هناك جسر. كان علينا لننجو أن نتجاوز الجسر. لكن الفاشيين كانوا يركزون نيرانهم على الجسر.

في لحظة خارجة عن مدار العقل والمنطق. لحظة اختراق الموت والحياة وصلت الأرض. لقد قفزت من علو خمسة أمتار. رجلي اليمنى بعد أن سقطت اعتقدت أنها انخلعت.

تفحصتُ جسدي بسرعة لأن الوقت ما كان كافياً لتفقد الألم. كان الموت على الجسر وكان يحصد الرفاق.

تابعت بسرعة قطط البرية المطاردة والجريحة، والتحقت باثني عشر مقاتلاً.

ونحن نعدو بين الصخور، كنا ما نزال نسمع الأصوات وهي تصرخ، والطلقات تئز فوقنا وخلفنا.

بعد إنهاك أسأل، ترى ما الذي حدث للآخرين؟ استسلموا أم استشهدوا أم عادوا؟

العراء

عندما كانا يتعريان في البراري، كان يركع أمام جسدها البرونزي. يقبّل الأرض ثم يرفع ذراعيه ويأخذها بينهما. يلثم صدغها ثم عينيها وعنقها وثدييها وسرتها، ثم ينغمر ما بين فخذيها المباركين. وهو ينهض تلوح سماء مضيئة كالنحاس، إذ ذاك يتوالجان كجذرين يلتفان ويلتفان حتى تصرخ الأرض والمسام وتجلجل السماء برعدها النبوي.

في ذلك الوقت المديد كأفق، ينسى الاثنان قسوة الزمن. هي تنسى ما فعل بها الرجل الآخر وهو ينسى خيانة امرأته.

بعد صلاة البراري يستلقي الجسدان القادمان من رحلة الجنون والطفولة فتبدو السماء عالية، زرقاء، زرقاء، كقبة هائلة، ويلوح الموت مؤجلاً.

وهما ممددان تحت هذه السماء كعصفورين، تسأله:

أهناك في الأعالي يسكن الله؟

يضحك وهو ملقى على العشب. يتنفس ثم يقول: هناك يسكن الوفاء.

وتسأله: أنت هل ستموت؟

ينغبن، ثم لا يفوه.

ثم تسأله: زوجي القديم كان يسكر ويعود ومعه امرأة. لماذا يطرد الرجل امرأة من حياته بعد حب عاصف؟

وتضربه صاعقة فيكتم خيانة امرأة ضاجعت رجلاً مرتين وصارحته.

ثم تقول: كان وسيماً وتقدمياً، لكنه كان يهوى جمع النساء كطوابع تذكارية. وتحمله الريح لتلوح له صورة الرجل القرد الذي اختارته زوجته.

وعندما تسأل: لماذا يقولون أن البدوي يأخذ بثأره ولو بعد أربعين عاماً؟

يقول: تأخرنا.

وفي زمن ما تقع غزة تحت الحصار. يجيئها البرابرة من كل حدب وصوب. لكن غزة تصرخ وتتماوج ويلمع برقها الغاضب. يُحمل بشر الغزاوي فوق أكتاف البرق ويصرخ مع غزة ثم ينشد نشيد الأممية، فتردد الرعود: غزة ستالينغراد. غزة لن تموت!

ينطلق رصاص البرابرة فيحصد القمح المتماوج، ويصاب بشر فيهوي جريحاً.

وفي ذلك الوقت تركض حقول طرطوس الخضراء لعناق البحر المتوسط تحت مساء مفعم بأغاني صيادي جزيرة أرواد العائدين من شواطئ قبرص وكريت، والتوّاقين لأحضان نسائهم اللواتي حرقهن الشوق للرجال.

على ضفاف أرواد، بوابة البحر، يندس بين النساء القادمات لاستقبال الرجال العائدين، رجال عابسون يرتدون سترات خاكية تخفي مسدسات الماغنوم.

من خلال الحشد وغيلان الدمشقي يطوق زوجته، تمتد الأذرع الخاكية لتفصل غيلان عن جسد زوجته الحار.

المسافات

هـا نحن من جديد.

ثلاثة عشر مقاتلاً، تحت ليل حالك، نعبر الأودية.

نرتطم بالصخور والأشواك، وهـوام الأرض، وفي أعماقنا الجوع والعطش والتوق للتدخين.

سير متواصل حتى الإنهاك، والفزع والعرق يجللنا.

كنت في المؤخرة. رجلي تؤلمني ألماً شديداً من سقطة الجسر، بينما المجموعة تتقدمني بسرعة مذهـلة.

ابتدأ التعب يخيم على الجميع. نسير مسافة ثم نكمن بعد أن نرسل دورية استطلاع. المقاتلون ينتظرونني حتى أصل ثم نتابع. كم كنت راغباً في الاستراحة، لكنهم كانوا يواصلون المسير بسرعة. في غمرة الإنهاك فكرت أن أتركهم وأستريح في كنف صخرة، ثم فكرت أنني لا أعرف الطريق إلى الجبل. إن بقائي قرب المجموعة يعطيني القوة. بدأت أتكئ على الكلاشنكوف وكأنه عصا.

ونحن نسير بين جبلين فوجئنا ببيتين مضيئين على السفح، وفجأة انطلقت أصوات.

بحذر عبرنا بين المنزلين، كنت بعيداً عن المجموعة حوالى ثلاثين متراً في المؤخرة. ابتدأت الأصوات تتعالى، لا بد أنهم كشفونا. أنذرونا بالوقوف، كنت أسمعهم يقولون: هـناك ناس

في الوادي. وفجأة انفجر الوادي بالطلقات. كنا نسمع أزيزها وهي تنساب بيننا. المجموعة اجتازت المنزلين وثباً. بقيت وحيداً فلم أستطع العبور. اختبأت وراء أجمة من الشوك، وكنت أسمعهم وهم ينادون بعضهم بعضاً: نحن هنا في الوادي لاتطلقوا النار. هناك مصباح يدوي يضيء بين الأشجار راح يقترب مني، وتساءلت: هل أسلم أم أقاوم؟

وقعت فريسة حيرة واختيار أحلاهما مر. سأموت. صار الأمر واضحاً. آه من هذا الألم الحاد في قدمي ومن هذا الحصار اللعين، قلت: ليتني بقيت في الزعتر ومتّ هناك!

كانوا يتجهون نحوي تماماً، وكنت أرى أشباحهم. خيل إلي أنهم كشفوا موقعي. تسمرت وكتمت أنفاسي. كنت قد قررت المقاومة حتى النهاية. وضعت إصبعي على الزناد. كانوا الآن على مسافة ستة إلى سبعة أمتار من مكمني. قطعت التنفس وتحولت إلى حجر. كدت أختنق واليد على الزناد. في اللحظة التي هممت أن أضغط فيها غيروا اتجاههم نحو عمق الوادي، وراحوا يبتعدون.

أحسست بالجبل ينزاح عن صدري فتنفست عميقاً، ولكن لم أتزحزح.

يبدو أن هناك كميناً على بُعد عشرة أمتار تقريباً، ومازالوا يواصلون النداءات: لا تذهبوا إلى أسفل الوادي. عودوا. بقيت مكاني جامداً حتى عادوا إلى المنزل المضاء. انبثق الفجر وأنا ما زلت متكوماً على نفسي كقنفذ وراء أجمة الشوك. بدأت أفكر والصباح يكشفني: ماذا أفعل؟ ظهر الضوء ولو تابعت المسير فسأنكشف. لو تحركت من مكاني فسيرونني. فكرت بإخفاء سلاحي ومتابعة السير بمظهر مدني عادي.

تحركت زحفاً وخبأت الكلاشن، ثم تركت علامة تشير إليه قرب شجرة صنوبر، وقررت النهوض والسير بلا سلاح. قطعت حوالى مئة وخمسين متراً. ما كان بالإمكان متابعة السير. كنت مكشوفاً. فكرت أن أقضي كل ذلك النهار مختبئاً حتى يأتي الليل. رأيت درباً ترابية بين مجموعة من الصخور الضخمة، كانت قريبة مني. تسللت زحفاً حتى صرت بين الصخور. بحثت عن فجوة لأرقد فيها، وبعد أن عثرت عليها أخرجت مديتي وبدأت بقطع أحزمة من الشوك. جمعتها ثم انحشرت بين صخرتين كبيرتين وبدأت أغطي جسدي بأغمار الشوك التي موّهتني وأخفتني عن الأنظار.

كانت الفجوة ضيقة تشبه القبر. وداخلها كنت كالميت الحي. تَعِب ظهري فحاولت الانكفاء على جنبي لأستريح. استغرقت المحاولة حوالى ربع ساعة داخل هذا القبر الشوكي.

كانت نتوءات الصخر تحز جسدي وأنا أتقلب وأتحرك. حاولت النوم فما استطعت. كانت هناك رائحة الأرض والصخر والشوك، ورائحة جسدي الذي ينبض مع الأرض. كنت أشك أنني سأبقى حياً. وفي هذه الغمرة نسيت آلام قدمي. كانت في رأسي صور ومشاهد التل: القتال اللامتكافئ، وصمود الاستشهاد والعطش وأنين الجرحى، والعيش على العدس، والأطفال الذين نفقوا من العطش، ومصيدة آبار المياه الواقعة تحت مرمى نيران الفاشيين، وإعدام الجرحى وانهيار الملجأ على الأطفال والنساء والجرحى، ومشاهد الذبح التي تمت بعد الخروج من الحصار.

صور، ومشاهد، وأصوات، كانت تترامح وتتطاير في رأسي في هذه اللحظة اللعينة فيستعصي النوم. أغفو هنيهات فتمر كوابيس الرعب والموت فأستيقظ وأنا أكاد أختنق. الآن أبدو كذئب جريح أنام بعين وأفتح الأخرى خشية المباغتة.

كم بدا النهار طويلاً. لم يكن نهاراً، كان قرناً من الزمن. وما كنت موقناً أنه سينقضي. لقد هدني الجوع والعطش وهذه الأشواك. في هذا القبر عانيت أكثر مما عانيت في تل الزعتر.

هناك كنت حراً معي بندقيتي وأنا أقاتل من موقع إلى موقع. أما هنا فأنا داخل قبر: آه. ليتني بقيت في تل الزعتر. عندما غربت الشمس، وأتت الظلمة، خيم على المنطقة هدوء غريب فأحسست بالانفراج والغبطة. إذ خرجت من حفرتي خيل إلي أنني أنهض من أعماق بحر عميق مكثت فيه دهراً. تنفستُ رياح الفضاء كلها وأدخلتها إلى رئتي. حركت ذراعي ورجلي كانت الدماء تنزف منها. كل جسدي كان مجرحاً، ومع ذلك قلت بفرح الحياة الجميلة: أنت ما تزال حياً يا يعقوب وينبغي أن تظل.

حثثت خطاي باتجاه مخبأ الكلاشن. اقتربت من المكان ورحت أبحث عنه. لابد أنني نسيت العلامة والشجرة. ارتعدت، اعتقدت أنهم كشفوا سلاحي لكنني لم أقطع الأمل. تابعت البحث بين جيوب الشوك. ساعة كاملة وأنا أدور وأفتش: لابد أن ألقى سلاحي فأنا بدونه لا شيء وبلا سلاحي سأموت.

أصداء

ويكون عصراً غريباً.

يجيء بالرعب والمجاعات وبيع الأوطان وآثار الحضارات القديمة. عصر تسيطر عليه آلهة الغاب والمافيات وحملة الماغنوم والبراوننغ والثياب الخاكية. عصر يقول بشر الغزاوي عنه:

فيه تُقتل الغزلان وتُنتزع قلوبها ثم تُعلب لتباع في الوول ستريت وشوارع تل أبيب وغزة والقاهـرة وأرواد وبيروت.

يقول ذلك وهـو يحتسي البيرة على شواطئ بيروت الذهبية.

ثم يدخل في منولوج غريب عن طفولته وجماله القديم، وبيته الذي كان مطوقاً ببيارات البرتقال وأسيجة الصبار.

يتحدث عن أبيه الذي تزوج أربع نساء، صغراهن الأخيرة كانت في السابعة عشرة وهـو على أبواب الخمسين. أبوه الذي كانوا يسمونه: صقر غزة.

ويتابع، وهـو عار بثياب البحر، وعيناه في الشمس وأفق البحر، حكايات قديمة ذات رائحة ميلودرامية. كيف كان يقود المظاهـرات، وكيف اعتقل لأول مرة من البوليس المصري في غزة، وكيف مارس الجنس مع ابنة خاله بين أشجار البرتقال وهـو في الرابعة عشرة. كان يشرب الخمر بوحشية ويخوض شجارات دامية مع أولاد الحي. وكان دائماً هـو المنتصر.

وفي غمرة هـذياناته الدونكيشوتية يتحدث عن الحشاشين واللواطيين الذين حاولوا مراودته في أزقة الأحياء الشعبية: كنت يافعاً وجميلاً مثل غزال. رأيت كبيرهـم يشير نحوي ويقول: ياولد يا غندور. يا حلاوة. تعال خذلك مصّه. وانطلقت قهقهاتهم الماجنة من حولي. لا أدري كيف اندفعت نحو كبير القوادين وفي يدي المِدية. فاجأته وشطبت وجهه. ذعروا من المفاجأة. تجمع الناس. هـرب القواد الجريح وهـو يصرخ ويولول.

غيلان الدمشقي كان يستمع لصوت البحر، ويتملى لمعان الأشعة على سطح الحقل الأزرق. بعد قليل نهض وسار على الرمل. كان الرمل المبلل ينخفض قليلاً تحت القدمين العاريتين.

راقب قدميه وهما ترسمان الآثار التي يمحوهـا أطراف

الموج. انحنى يجمع الأصداف الصغيرة. أصداف بيضاء وأصداف بنفسجية، ناعمة وملساء. كان يجمعها حفنات صغيرة ثم يغسل عنها الرمل.

في الذاكرة لمعت شواطئ طرطوس الحزينة، فخفق القلب الحزين. سقطت من العين لؤلؤة امتلأت بها صَدَفة. شواطئ مدّ البصر. خضراء تنام بين أذرع البحر. أغاني صيادي أرواد ومصابيح زوارقهم الليلية. المرأة التي عشقها على الشواطئ وطارد معها سرطانات البحر وجمعا الأصداف يوماً، والتي ماتت غمّاً.

الآن. الآن. ينهض الحصار عالياً. عالياً. يطوق البحر والسهول الخضر. ويهبط بأشباحه السود فوق ذرى الجبال.

الجوع

الآن. وجدت الكلاشن أخيراً قرب الشجرة، انتشلته وقبلته فرحاً ثم تابعت سيري في العتم. ابتدأ الجوع والعطش واللهفة إلى سيجارة. بدأت أبحث في الظلام عن أي شيء يؤكل. كان الأمل مقطوعاً في إيجاد ماء في هـذه الأرض القفر. رحت أمضغ بعض أوراق الصنوبر فالتهب جوفي عطشاً. كالحيوان انحنيت أبحث عن عشب أخضر. كانت هـناك أعشاب يابسة تغطي الأرض. تابعت سيري تحت هـذه الوطأة. الحياة في داخلي كانت أقوى. تناولت بعض الحجارة وضغطت بها معدتي لأخفف من صراخ الجوع. بعد سير مضنٍ وجدت نفسي داخل حقل أرضه منبسطة. انحنيت أبحث عما يؤكل. تلمست جذعاً رحت أتحسسه في الظلمة من الأسفل إلى الأعلى. آه. يا إلهي. كان جذع دالية عنب. وضعت الكلاشن جانباً وتسلقت الدالية. قطفت كميات كبيرة

من العناقيد، حملتها ونزلت. بدأتُ التهم العناقيد كثعلب. العنقود بكامله كنت أحشوه في فمي أنهش حبيباته بنهم حيواني. أمام هـذه المائدة الإلهية التي أعادتني إلى الحياة برحيقها، ظللت ساعة كاملة.

شبعت. استعدت نشاطي وطاقتي. وضعت سلاحي على كتفي وتزودت بما تبقى من عناقيد العنب. بعد أن قطعت الحقل واجهني وادٍ مظلم. بدا لي كفوّهـة قبر واسع. وقفت على حافته تحت الظلام الدامس. ما كان بالإمكان الالتفاف حوله. أخيراً، بعد تفكير سريع، قررت شق طريقي عبر الوادي.

انحدرت. كانت الحجارة كثيفة وسريعة التدحرج، وأنا ماأزال أعرج ولا أريد أن أحدث صوتاً. وراحت الحجارة ترتطم برجلي، والأشجار تمزق ثيابي وأنا ما أزال أتابع طريقي.

بدأت أفكر برفاقي الذين فقدتهم. ماذا حدث لهم؟ أوصلوا أم لا؟ هـل ما زالوا يتابعون مسيرتهم؟ وفكرت إن كنت في الطريق الصحيح أم أنني أخطأت؟ وهـل أصل أم لا بعد كل هـذا الشقاء المرير؟ أين أنا الآن يا ربي؟

بعد اجتياز الوادي فاجأني وادٍ آخر أكثر ظلاماً من الأول. كان الوادي محروقاً. عرفت ذلك من عري الأشجار والرائحة. تجنبت الدخول في عمق الوادي. سرت في السفح حتى وصلت جزءاً أشجاره غير محروقة، فبدأت معركة مع الأشجار الكثيفة التي مزقت ما تبقى من ملابسي.

كنت أسير بقدمين مرضوضتين، لكن قويتان. فجأة انطلقت أصوات. تسمرت في مكاني: يا للشيطان هـا هـم ثانية! هـذه المرة هـل ستنجو يا يعقوب؟ رأيت رجالاً يسيرون على الحافة المقابلة من الوادي. أشعة القمر الذي بدأ يبزغ كشفتهم. أربعة

رجال مسلحون. بدأت أسير كمن يخطو في الفراغ خشية الضجة. كالريش كنت ألامس الأرض. لقد أحسوا بي على ما يبدو فاختبئوا بين الأشجار. بيننا بدأت لعبة الخوف والشك. عندما يتحركون أختبئ وإذ يختبئون أتحرك. لعبة القط والفأر.

في البداية دمر الخوف أعصابي، لكن كان علي أن أتماسك لأخوض معركة النهاية. ليتني بقيت في تل الزعتر أقاتل حتى الموت. أي قدر لعين قادني لأموت في هـذه الأودية البعيدة!

بعد أن تناوبت لعبة الاختفاء والظهور، راودني الشك. انحرف ذهـني باتجاه آخر: أيكونون شرذمة من رفاقي؟

كانت العزلة قد مزقت روحي عبر هـذه الليالي القاسية. وكنت بحاجة لرائحة إنسان في هـذا التيه. انبثق التوجس، وحرب التل الضارية خلال اثنين وخمسين يوماً: ماذا لو كانوا من الفاشست؟ أخيراً قررت الاندفاع نحوهـم مباشرة ورشاشي في وضع الرمي الغريزي. صحت بصوتٍ غير عال: أنتم يا من هـناك!

لم يجب أحد. كنت أقترب وهم ما زالوا قابعين بين الشجر. بصرخة بين الموت والحياة، بين القتل والنجاة، بين اليأس والأمل، صحت: أنا من تل الزعتر يا شباب. أنا يعقوب شحادة، رشاشي في وضع الرمي إن كنتم أعداء. إذا كنتم رفاقاً اخرجوا ولا تخافوا.

كانت الإصبع على الزناد، وتوقعت انهمار الرصاص علي. كنت الآن على مسافة عشرة أمتار منهم. لا صوت. لا حركة. ولم يطلقوا. اقتربت أيضاً إلى مسافة متر منهم. أخرجت بطاقتي الفلسطينية واليد ما تزال على الزناد. واجهت صدري فوهـة

رشاش متأهب. تناول أحدهم البطاقة وتعارفنا. كانوا من جماعة شاردة غير جماعتي.

قالوا: لو لم تقل من تل الزعتر لقتلناك. عمرك طويل. احمد ربك.

وانخرطنا في عناق حار.

ريم المرأة التي عرفها غيلان الدمشقي بعد الليلة الأولى، كانت امرأة حزينة، ومشتتة. انكسرت بوصلة اتجاهها في أعماق الصحراء فضاعت.

ومع أن الرجل كان يتعب من الكلام كثيراً، إلا أنه كان يرى ويسمع ويتأمل، وهو يتأرجح بين الأسى والغضب الصامت. وهذه المرأة دائبة الشكوى دائبة الاحتجاج، تفيض مرارة واشمئزازاً من قذارة هذا العالم.

عندما اتهموها بالعهر والانتقال من رجل لأخر، كانت ترد عليهم بأحكام مطلقة: ماذا جنينا من حربكم؟ النساء تحولن إلى شبه مومسات للمقاتلين تحت ذريعة التحرر الميداني. قسم كبير من الثوريين سقط في الجنس والأفيون والحشيشة. آخرون توهموا أن باستطاعتهم تفجير الثورة على مستوى الوطن العربي فذهبوا إلى المشانق. هذه كانت المحصلة. ويسألها غيلان: والشهداء ريم؟

تقول بأسى عميق: وحدهم المنارة. واأسفاه كانوا ضحايا. لقد نجوا بدمائهم بينما استثمرت قيادتهم رائحة الدم.

ـ وأنتِ يا ريم. أنتِ لماذا...؟ ما كانت لديه رغبة في التتمة.

كان يعرف طاقتها الحاقدة على العالم. قدرتها الذاتية واللامتناهية على الإدانة المطلقة لكل ما هـو سائد.

- يخيل إلي أن اليسار المتطرف كان جموحاً أكثر مما ينبغي.

يصعد الشهيق، حاملاً عبر الصدر بوادر نشيج. مقاتلها الذي اصطفته في العصور الرديئة، أخرج سهمه الأخير بعد الحرب وأطلقه، فأصاب قلبها الصغير فتناثر. قال: أنتِ عاهـرة خنتني مع مقاتلي مواقعك الصغار فأنت طالقة.

- لقد وصل الدمار الروحي حافة الخيانة. أجل. أجل. الجميع يعرف من الذي سلم عاصي الغضبان ومجموعته لحبل المشنقة. لقد كانت الخيانة من الداخل.

- ريم!

دخلت الآن عتبة الهَتْك كما دخلت مدار النحيب. كانت ترتجف تحت إعصار هـبّ فوق سهوب نفسها فاقتلع الشجر والجذور والصخر.

- المرأة لا تبحث عن رجل آخر إلا بعد أن يصبح فراشها بارداً. لقد حاولوا معي في المواقع لكنني رفضت. قالوا: أنتِ رجعية. الجنس أيضا شراكة كالطعام والموت. لكنني صرخت بأنني أرفض هـذه الفوضى.

حدث ذلك بعد أن استرخت الأشياء، وبعد أن خمد بريق الشيء الأعظم الذي فاجأ كإعصار. لقد انحسر مدّ البحر فعرى الأصداف والطحالب والجثث والسرطانات الميتة وقطع الخشب المنخورة، وخرجت الروائح.

وفي ذلك الوقت كانت بيروت تتشح بالحداد الذي يليق بامرأة غادرهـا زوجها إلى مملكة الموت.

ـ أجل. أجل. قد تسميني عدمية لكنني ما عدت مؤمنة بشيء بعد الذي حدث. حتى المقاومة بدأت تغوص في الوحل. مملكة الفاكهاني أصبحت تعج باللصوص والقتلة والحشاشين واللواطيين. انظر إلى مكاتبهم الفاخرة وسياراتهم الفاخرة وولائمهم الفاخرة. إلى مهماتهم السرية والأموال التي يبعثرونها في السمرلاند والكورال بيتش وسقراط والعجمي والكومودور والروشة وملاهي الحمرا، بينما الشعب في المخيمات والقرى وأطراف المدن يتضور تحت وطأة هـذا الوحش الاستهلاكي. أهـذا هـو حصاد الحرب الأهـلية؟

ـ ريم! والشهداء؟ وتل الزعتر؟ وعمليات الداخل؟ ودلال المغربي؟

ـ هـيه. هـيه. النيازك. النيازك. أنت مازلت مأخوذاً بذلك الوهج السرابي الخادع يا عزيزي غيلان.

ـ أي سراب؟

ـ سراب الدم ووثبة التاريخ والصراع الطبقي.

ـ وأنتِ. إذا خيبك رجل هـل انتهى...

قطعت عبارته وهي مجللة بدمعها: طظ على الرجال. إلى الجحيم كل شيء. الأوطان الخائنة والصراع القومي والطبقي. أنا لا أتحدث عن ذلك. إنني أسأل لماذا يتمزق حلم الأطفال كطائرة من ورق في الفضاء؟ لماذا أتى بي من البلاد البعيدة، من بلادي، ثم غدر بي؟

بدا صعباً إعادة التوازن لحوار بين قطبين أحدهـما حار والآخر بارد. أحدهـما موجب والأخر سالب.

كانت الأرض ترتج بملايين الاهـتزازات في أعماق المرأة التي انكسرت بوصلة اتجاهها، بينما استعيض عن إبرة

الاهـتزاز بهذه التموجات البرقية التي يوقعها خفقان الصدر واللسان والعينين الجريحتين.

اعتراض

اللقاء الأول كان في صالة عرض، وكان مباغتاً. مجموعة صغيرة كانت تشاهـد شريطاً سينمائياً عن تل الزعتر. بعد انتهاء العرض جرت مناقشات خاطفة حول الفن وضراوة ملحمة التل. بشر الغزاوي قال بفخامته المعتادة: للفرنسيين كومونة باريس التي استمرت اثنين وسبعين يوماً ولنا كومونة التل الذي صمد اثنين وخمسين يوماً.

كانت هـناك امرأة غريبة تشاهـد الشريط. امرأة مثيرة شاركت في الحوار على نحو استعراضي. قالت بأن الفيلم ليس في مستوى الملحمة. الواقع كان أكثر حدة وضراوة. كانت تتكلم بأبهة امرأة واثقة مما تقول أكثر منها مقتنعة. واستطردت باجتياح تتحدث عن أفلام أوروبية وأمريكية، ثم انتقلت تحكي عن فيلم ستالينغراد. ختمت مهرجان ثقافتها: كان ينبغي إخراج تل الزعتر بمستوى ستالينغراد الفلسطينيين.

بشر الغزاوي فاجأته حماسة المرأة فانبهر بها. وعندما صحح لها المخرج بعض الأخطاء والأسماء والمصطلحات، اندفع بشر يعترض المخرج مؤيداً المرأة. بعد الخروج من صالة العرض، سارا معاً. تحدثا باقتضاب في الشارع الضيق. هـو افتتن بأبهتها وشموخها الأرستقراطي وهي رأت فيه ملامح طفولة وصيد عابر.

سألته: ألديك سيارة؟

قال: بالتأكيد.

ـ لن تكون محرجاً لو أوصلتني؟

ـ أبداً. بكل رحابة صدر.

في الطريق سألته إن كان معجباً حقاً بالفيلم فأجاب: الحقيقة. لا. أنا شاركت في معارك التل. كما قلت الملحمة كانت أكثر ضراوة وعنفاً. إنما الشريط يخدم القضية عموماً. تجاوزت المرأة الموضوع فسألت: عفواً. نسيت أن أسألك عن الإسم!

ـ بشر الغزاوي.

ـ أنا أليزابيت. أصدقائي ينادونني ليزا دلالاً

ـ أين تسكنين؟

ـ في الحمرا. عمارة وفندق الكومودور.

ـ أوه. نحن جيران إذن. أنا أسكن في رأس بيروت.

وبطريقته التي ترتدي قفازاً حريرياً فوق جلد ذئب قال: سأكون سعيداً لو قبلت دعوتي لتناول شيء في مكان ما. ما رأيك بالكورال بيتش؟

ضحكت. نفضت شعرها القمحي المصبوغ إلى الوراء: أوكي.

ابتسم بشر الغزاوي بانتصار. ابتسمت ليزا لهذا الطفل الذي يحب اللعب السريع بالنار.

قال: نبني بيتاً في الصخر يتوطد؟

قالت: نبنيه عميقاً وشامخاً.

قال: يصد الريح والنوائب؟

قالت: ويصد الذئاب وأزمنة الشتات.

قال: نفصد دمنا عهداً وميثاقاً؟

قالت: نفصد دمنا عهد وفاء حتى الموت.

فوق الصخر، قبالة البحر الشاهد والشمس الشاهدة، رفعا ذراعيهما فتشابكتا فضربا بهما الصخر المسنن فانفصد الدم فامتزج. هي تعرت وهو تعرى واندفعا في لج البحر. غاصا عميقاً ثم خرجا إلى السطح ثم غاصا ثم طفوا، وفي لحظة من الفرح الطفولي، داخل البحر الشاهد وأمام الشمس الشاهدة، تواشجا وجهاً لوجه وصدراً لصدر وساقين لساقين.

حين صرخت هي وصرخ هو ردد البحر والشمس صدى صوت الطفل الذي تدفق بين الأبيض والأحمر. الأبيض الذي خرج من دمه والأحمر الذي خرج من دمها.

بعد حين غابت شمس ثم أشرقت. تمدد البحر وعتا. أقبل موجه يتفقد الشطآن والصخور العاتية والمنازل المرصوصة في أعماق الصخر، فوجئ الموج العاتي بدم قرمزي جاف وبالرمل. بمنازل من الرمل المجوف.

مسح الموج الدم والرمل في لحظة برق وعاد. بعد عودته ماكان شيء قد حدث. طائر أبيض كان يغني هناك في أقاصي البحر. صوت أغانيه مزيج من الأنين والضحك.

الشبكة

مقهى ومطعم ومسبح السمرلاند، لوحة من الرخام الأبيض المتناسق والمهندم، صنعها مهندسون ومعماريون أوروبيون في كل مكان على شواطئ المتوسط لتكون منتجعاً على حافة

البحر، واحة هـادئة للعشاق ومالكي الأرصدة والعمارات والسيارات وحملة الماغنوم والكولت.

هـذه الريفيرا اللبنانية تقوم وسط براكات حزام البؤس واللاجئين، ومهجري جنوب لبنان وفقراء الأوزاعي والرملة البيضاء.

وأنت تجتاز رمل البحر الأبيض، تواجهك البحيرات الاصطناعية ومظلات الصيف والحدائق المصنوعة والسترات الأنيقة للخدم الذين يتحركون كالدمى.

بعد أن تلوب في الممرات والمتاهـات وفوق أدراج الرخام الأبيض تفاجئك مغارة مجوفة صنعت بإتقان لخلوات العشاق.

تقول أليزابيت وهما يلجان بوابة المنتجع: تعال أريك مشهداً لن تنساه. تجرّ بشر الغزاوي من معصمه ويدخلان تحت القبة الساحرة شبه المظلمة.

ـ الله! ما هذا الشيء الخارق؟

وتقول أليزابيت: هـذه استراحتي المفضلة. نوازل بلون البازلت تتدلى من سقف الكهف. أضواء خافتة مصنوعة من الأحمر والأصفر والأزرق. طنافس من جلد لامع. جلود غزلان مصبوغة وملصقة على الجدران. النافذة المقوسة والواسعة تطل على المشهد البحري. بين البحر البعيد واللامع، بحيرة اصطناعية على حافة الكهف.

تغمز أليزابيت خادم الكهف فينحني ويخرج. يصير الكهف لهما الآن. على ديوان وثير ملاصق للجدار يطل على البحيرة ومشهد البحر يجلسان متلاصقين بحميمية. الدهشة الملونة يصبغها بِشر بحركات وكلمات تليق بالمكان وبهذه الليدي التي باغتته فانصعق بها.

تسأله ماذا يرغب أن يشرب فيقول: سكوتش. وتطلب هي كأساً خاصاً من الجن.

فخذاهما شبه متماسين، وأصابعهما تتلامسان تلامس البحيرة لجدار الكهف. لقد ارتدت الليدي أليزابيت فستانا وردياً شفافاً في هذا الغروب القائظ. فستان محبوك مشقوق الصدر وأحد الجانبين. وكما كان الشق الصدري ينحسر حتى منتصف النهدين الأبيضين، كان الشق الجانبي يتجاوز الركبة نحو الفخذ.

امرأة كاملة الحضور ذات توهج ملكي.

ـ ليزا...

وجثمت عيناها في عينيه. كانت أشعة عينيه تخترق شق صدرها الجامح.

ـ هيه!

ـ الحقيقة إنني مسحور ومأخوذ لكأنني في حلم.

ـ بالمشهد. هاه. حقاً إنه ساحر.

ـ لا. ليس بالمشهد. بل بكِ. يا إلهي! تبدين الآن كإلهة إغريقية. تبتسم بصلافة المرأة الطاغي جمالها. يضغط بهدوء أصابعه المرخية والمستسلمة لكفها.

ـ لاتكن مبالغاً.

ـ يا إلهي! من أي نجم هبطت أيتها الساحرة. صدقيني أن إحساسي بك يضارع إحساس الأعمى بالضوء.

ـ أووه. يا للشعر!

ـ أبداً. أبداً. ليس هذا شعراً إنه الحقيقة. فيك شيء غامض يخلب اللب.

ليزا ضحكت للإطراء. وضحكت أكثر من هـذه الطفولة المدهـوشة بالغابة: كل النساء غامضات كالغابات. أنتم الرجال تقولون ذلك. ثم استطردت: قل لي. كم عدد النساء اللواتي ردّدت على مسامعهن هـذه الأسطوانة؟.

غضب بشر الغزاوي للحظة: أوه ليزا. لا. لا. أنت تظلمينني. بشرفي لم تسمع هـذه العبارة امرأة من قبلك. أنا لاأجامل أبداً ياعزيزتي في مثل هـذه الأمور. لقد أخفى تحت غضبه المدلل غرور الدونجوان الذي انفضحت سريرته. ومع أنه كان يعاني مأساة البحث عن الرضى والمرأة التي رسمها في رأسه وهماً وخيل إليه أنه وقع عليها الآن، إلا أن أليزابيت لم تكن تعرف ولا قرأت ولا هي معنية بمأساة هـذا الذي يبحر في بحار النساء ويظل عطشاً لا يرتوي.

انتهى كأس الويسكي الأول فطلبت له آخر.

في أعقاب الكأس الثانية، ابتدأ العالم يترنح في رأس بشر الغزاوي. حاول تقبيل المرأة فصدته بتهذيب: لا. نحن في مكان عام. بعد أن ننهض من هـنا نذهـب إلى شقتي.

ـ يبدو أنك قاسية.

راوغته فتخطت العبارة ومسحت شعره برقة.

ـ أنا إنسان شفاف وحزين وأحبك. قال ذلك وهـو يقبل معصم المرأة التي تمسد شعره.

في غمرة تدفق أناه وهـياجه وانبثاق صباحاته وأماسيه، سألته بغتة: لكنك لم تقل لي بعد من أنت؟ بُهِت. عقد حاجبيه وسدد نحو وجهها: ماذا تقصدين؟

ـ عنيتُ اسمكَ الحقيقي.

- لكنني قلته لك.

- لا بدّ أنك أعطيتني الإسم الحركي لا الحقيقي.

ضحك بشر. شرب جرعة. سدد عينيه مرة أخرى إلى فسحة النهدين فقرأ شوقه وآلامه، ثم انهمرت الذكريات وضربة الخيانة.

- كأسك يا. هل أقول بشر أم...

- لا. لا. لنشرب كأس المرحوم يعقوب شحادة.

وقرعا الكأسين. هو أترع كأسه حتى الثمالة وهي قذفت بما في كأسها إلى الأرض.

- هكذا إذن!

غمزت الخادم الواقف بالباب طالبة كأساً آخر.

- وماذا تعمل الآن؟ سألته المرأة الغامضة.

واستفاض بحكايات ذات معنى، خلطها بقايا صحوهِ بأمور لا معنى لها. وحكى طويلاً عن خيانة زوجته.

وهو يتعاطى كأسه الرابعة سألته لماذا خانته زوجته، فأجاب بعبارات أسية وجارحة.

كانت أسئلتها تمزج الشخصي بالعام لتنأى به عن الصحو. وسألته عن حياته وعلاقاته، وماذا يقرأ ومع من يقيم علاقات أثيرة، وما نوعية الحوارات التي تجري بينه وبين الآخرين، وعبر ذلك سألت عن وضع المقاومة بعد الحرب الأهلية، وعمليات الداخل. ولقاءات التسوية في الخارج بين العرب واليهود، وما هي مشروعاته المستقبلية، وهل ينوي الزواج مرة أخرى.

بدت الأسئلة عادية وعابرة بين رجل سياسي وامرأة جميلة

شهية الجسد. تفتح مجالاً لرجل مهزوم وعاشق خائب كي يكشف عن جراحه.

كل ما يعرفه وترسمه استيهاماته وتحليلاته الاستعراضية استفاض به. لقد تدفق كما يتدفق ماء سد انفتحت فيه فجوة: ولكن كيف تقضي لياليك؟ السؤال بدا عرضياً هو الآخر.

تنهد بشر. ومن عينيه شعت شمس جريحة: كما ترين. نساء وخمر وثرثرات. ونفخ. أشعل لفافة وهو يرتعش: أحيانا ألجأ في أواخر الليالي إلى صديق حميم لنفسي. صديق غير ملوث مايزال يؤمن بوثبة التاريخ وضياء الأزمنة القادمة. أشاحنه في الأمسيات فيتهمني بأنني مهزوم وأثأر من الخيانة، فأقول له بأنك ملتاث بآفاق لن تشرق شموسها أبداً.

ـ من هو؟

ألقت السؤال بتلقائية.

ـ أنت لا تعرفينه. اسمه غيلان الدمشقي. إنسان نزيه لكنه خارج هذا الزمان القحب.

اهتزازة طفيفة عَرَت جسد المرأة. بشر الغزاوي لم يلحظ غير اهتزازة السكوتش في ربع الكأس الرابعة. ما عاد هناك سمرلند ولا كهف ولا بحر. غطت البحر والعالم ضبابة رمادية معتمة راحت تركض حتى وصلت مشارف طرطوس وأرواد، فحاصرتهما.

ـ لننهض. قالت المرأة.

ـ أنت مكتئبة. حبيبتي ليزا؟

ـ لا. لا. أبداً. لدي موعد الليلة مع صديقة تذكرته الآن.

نحن الآن خمسة فدائيين نتابع سيرنا بين الأشجار عبر سفح جبل ضخم. فاجأنا نهر. مياهــه لمعت على مرمى أبصارنا تحت ضوء القمر. كنا عطاشاً ورغبنا الانحدار نحو النهر. هـناك صخور عالية تمنع وصولنا. عدنا أدراجنا إلى سفح الجبل. كان الذهــاب إلى الماء مخاطرة بالموت. ازداد العطش وآلم الجميع. استرحنا على السفح قليلاً. حاولنا الانحدار نحو المياه التي تتلألأ تحت الأشعة وتجذبنا نحوهــا كحقل مغناطيس، ولكن عبثاً. عدنا إلى السفح من جديد.

فجأة سقطتُ في حفرة فغصتُ حتى رقبتي. صرخت. عاد اثنان من رفاقي وانتشلوني. وابتدأنا نسير إلى الأمام في محاذاة النهر.

لقد مضى علينا حتى الآن ستون يوماً لم يلامس فيها الماء أجسادنا.

يقول بشر الغزاوي: امرأة كالرعد. أنا مصعوق ومخلوع القلب يا أخي غيلان. ويرد غيلان ضاحكاً: متأكد أنها ستكفي دونجوان وتلثم جراحه؟

- بشرفي. بشرفي. بلا مبالغة إنها آلهة حقيقية. ولا الليدي شاترلي يا رجل!

- نمت معها؟

- لا. موعدنا غداً.

وبحركة مسرحية فرقع أصابعه في الفضاء ابتهاجاً.

- وإذا ما فتكت بك كالأخريات وأدمت قلبك؟

ـ دعك. دعك من هـذه الشكوك. يا أخي أنت عدو محترف للنساء ولا تفقه عنهن شيئاً.

ـ الحقيقة. أنا أقرّ بجهالتي المطبقة بهن يا أخي بشر.

أخذ جرعة من كأسه ثم أشعل لفافة من أخرى. كان يشرب ويدخن بانفعال طفل.

ـ ستكون ليلة من ليالي ألف ليلة.

ضحك غيلان: بالتأكيد. الليلة الثانية بعد الألف يا عزيزي هـارون الرشيد. ولكن هـل الليدي زبيدة رائعة إلى هـذا الحد؟

وصرخ باستعراض وهـو يحسو الويسكي كمن يرضع: زبيدة إيه! هـذه أليزابيت يا رجل! عليَّ الطلاق ولا هـيلين طروادة.

صدمت يد غيلان حديد الشرفة عفواً. ارتعدت عضلة في وجهه الذي شحب. رأى الضبابة الرمادية الراحلة، وكتم صرخة.

قال غيلان الدمشقي: وهـل لابد أن تذهـب للقائها غداً؟

قال بشر الغزاوي: هـذه لحظتي التاريخية وبعدهـا أكون أو لا أكون.

وضع غيلان أصابعه فوق عينيه ورمى رأسه إلى الجدار.

من بين الأصابع، وهـو يتذكر طرطوس وأرواد ورجال الماغنوم، لمح نيزكاً يهوي من سماء سحيقة ويتناثر.

الليلة الثانية بعد الألف

في الليلة الثانية جاء بشر الغزاوي. وجه مربد وغاضب وعينان حمراوان تنضحان شرراً. خطا نحو الشرفة دونما

تحية. جلس على كرسيه المعهودة والمشرفة على البحر. رمى رأسه إلى الخلف ومد ساقيه على إفريز الشرفة.

بعد لحظة زفر بحرقة مرّة. قال غيلان: آتيك بكأس؟ أومأ موافقاً.

خلط غيلان كأسي ويسكي بالثلج. وضع كأساً أمام بشر وأبقى كأساً بين أصابعه. وارتخى الصمت.

صوت البحر العالي كان يشتت الصمت في هذا الغسق المتأخر.

- لاشيء. لاشيء. عالم قذر وأنا هالك.

تمتم بشر بغصة ثم جرع طويلاً من كأسه. أدرك غيلان أن الرجل أصيب، وأن الجراح القديمة ستنفتح.

بشر الغزاوي يمسح شعره بعصبية، ويدخن على نحو متواصل.

- هل أتيك بسيجار هافانا؟ رد بشر: لا. لا. ما عدت أريد شيئاً غير الموت والراحة من هذا العالم القذر. مع الرشفة الأخيرة ابتدأ يسعل. شاهد غيلان النار والدم يصعدان من عينيه ووجهه. طلب كأساً أخرى. كان واضحاً أن أي سؤال سيفجره. قرر غيلان الصمت. وأحضر له كأساً.

وضع بشر أصابعه العشرة فوق وجهه، ونفخ بأصداء خارجة من مسام الروح.

- لابد أنني أتفه مخلوق ولدته الأرض. حتى الحشرات أقل نذالة مني. وتنهد: يا إلهي. يا إلهي. أية خدائع. أية أوهام في رؤوسنا نحن أولاد العواهر!

وتحت غمرة الأسى وفيضانات الجراح والبكاء، راح يهذي. ابتدأ بالنساء الخائنات وسافر نحو الثورات المغدورة.

- عالم من وحل، عالم كلاب وخنازير. هـذا الزمان القحب من أين أتى ولماذا يبقى الإنسان فيه؟

صعدت الضراوة والرعب. امتزجت بمرارة قديمة.

اهـتز غيلان الدمشقي. سأله بهدوء: ما الخبر؟ دعنا نفهم ما حدث.

- ماذا أقول لك. أنت تنبأت. آه. آه. كم أنا مخدوع. يا إلهي ما أعمق خديعتي!

كان الدمع ينفر الآن من بين أصابعه راشحاً نحو معصميه.

- ولكن ينبغي أن تهدأ قليلاً لنفهم ما جرى! أهي تلك المرأة؟

تحت النشيج راح يتحدث بارتعاش عن المرأة التي صعقته وخلعت قلبه خلال ثلاثة لقاءات. في الليلة التي أسماهـا الليلة الواحدة بعد الألف والتي سيكون فيها أو لا يكون، اكتشف سر المرأة التي أغوته ثم خذلته وطردته من بيتها.

حتى الفجر وهي تسقيه وتذله وتستجوبه. كانت نصف عارية، لكنها تركت بينهما مسافة. رقصت له وغنت وداعبته ومدت أصابعها بين فخذيه، وسمحت له باعتصار نهديها وضغطها إلى صدره، لكنها امتنعت عليه في لحظة هـبوب الشبق. كانت تسأل وتسأل وتسأل وكأنها تمثل دوراً في مسرحية دُرّبت عليها مراراً. تحت وهج تياراته المتموجة، غب الثمل وبعد أن تأبت عليه، تلفظ بكلمات نابية عن العهر والتمثيل والأدوار القذرة. واستشرت الإلهة فتحولت إلى ذئبة بصقت في وجهه ثم صرخت به: حقير. نذل. أنت لا تستحق أكثر من الركل في مؤخرتك. هـيا اخرج من بيتي قبل الفضيحة!

كانت الآن واقفة وسط الصالون، متأهبة لقذفه من الباب.

صعد الدم إلى صدغه واشتعلت نيرانه القديمة. أمسك بها من شعرها وباليد الأخرى شق ثوبها الداخلي من فتحة الصدر حتى ما بين الفخذين. طرحها أرضاً ثم داس وجهها وسحق نهديها العاريين بقدمه.

صرخت: آه. أيها الكلب ستموت. أنت لا تعرف من أكون. سترى!

كانت هناك مرمية كنفاية. مُذلة، ومسحوقة، وغارقة بالدمع والهياج الذئبي.

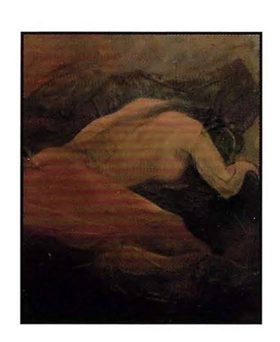
وهو على العتبة نظر إليها وبصق: في مؤخرتي هذه أنت ورجالك السرّيون يا عاهرة.

عندما حطموا الباب ودخلوا عليهما، كانوا يرتدون السترات الخاكية وبين قبضاتهم مسدسات الماغنوم. الطلقة الأولى حطمت زجاج نافذة الشرفة. الثانية مرت بين وجه غيلان ووجه بشر الغزاوي فاصطدمت بإفريز الشرفة.

استيقظ تل الزعتر ناهضاً من تحت الأنقاض.

صرخ يعقوب شحادة الأعزل وكأنه يثب من فوق جسر، ثم هوى كشهاب ناري من الطابق الثامن.

بيروت 1980





في أصياف عبرت، تحت قمر يضيء السهول والبحر، كنت أنتظر على سطح البيت وبلهفة طفولية قدوم البومة الذهبية.

كانت تأتي في أواسط شهر آب من كل عام. تقف أعلى شجرة السرو وتراقب فئران الحقل الليلية. وفجأة تنقض كالصقر وبين مخالبها فأر أو خلد حقل أو خفاش صغير.

بفرح كنت أتهلل لقدومها، شبيه طفل يتلقى هدية تهبط عليه من سماء بابا نويل، وهي تخفق بجناحيها فوق حديقة البرتقال والليمون والسرو.

كنت أراقبها وأتملى بهاءها الأبيض والذهبي من مسافة قريبة، مسحوراً بجمال رأسها الدائري الشبيه بالتاج، ثم هذا الانتصاب الواثق وهي تدير عينيها الثاقبتين كمروحة عسلية برّاقة.

ما كانت تطيل الإقامة. يومان أو ثلاثة ثم تهاجر. مع رحيلها تنهمر على روحي كآبة الفقدان. إحساس بفقد صديق عزيز زارني من أقاصي العالم ألقى السلام عليّ خطفاً ثم غاب.